

مولاي علي الشريف وجهوده التأسيسية
(762-847هـ/1360-1443م).

~~~~~ أ.د مولاي هاشم بن المهدي العلوي القاسمي \*

توطئة: نعالج في هذا البحث الذي خصصناه لتاريخ حياة مولاي علي الشريف، قضايا تاريخية من الأهمية بمكان ارتبطت بالأوضاع التي عرفها المغرب على امتداد ترابه الوطني وامتداده التاريخي خلال حياة مولاي علي الشريف، فشكّلت الحياة السياسية للمجتمع المغربي وتنظيماته المدنية والعسكرية قبليا وسليبا وأسريرا، ولهذا سنحاول أن نبقي مرتبطين بعصر مولاي علي الشريف ارتباطا لا يخرج من حياته الزمنية التي عاصرها طيلة خمس وثمانين سنة، قسم منها في القرن الثامن للهجرة ابتداء 762هـ/1360م، وقسم آخر يمتد في القرن التاسع الهجري إلى حوالي 847هـ/1443م، فهذا الامتداد عاصر أحداثا في تاريخ البلاد وارتبط بمتغيرات كبرى فعلت فعلها في تشكيل النظام السياسي وقيام مظاهر جديدة للحكم، فضلا عن تغيير وتبدل الأسر الكبرى، وهذه المظاهر هي نشأة الاستقلاليات المحلية بزعامات قبلية وأسرية على امتداد التراب المغربي شمالا وجنوبا- شرقا وغربا، وبرزت في ذلك ظاهرة تفسخ وضعف أوامر السلطان وسلطة الدولة، فتظهر الدولة بالاسم ولا تحكم بالفعل، فالأمر يرجع إلى الزعماء المحليين، وظهر خضم وزحم كبير في الحياة الداخلية، وكل حركة من حركات الزعماء المحليين في التراب الوطني تجعله يتطلع إلى تأسيس وتكوين إمارة أو استقلالية محلية. ولم تدون جميع تلك الحركات تدوينا علميا تاريخيا مفصلا، وإنما تظهر آثارها في ركاب الزعامات الكبرى التي تحاول جمع الشمل وضم الشتات، وهذا واقع يواكب ضعف الأنظمة الحاكمة في مغرب العصور الوسطى، الشيء الذي يجعلنا نقول إن المغرب يتهيأ لتحركات جديدة تفعل فعلها من أجل تكوين الدولة المغربية التي تعاصر القرن الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

في هذا الخضم والزحم نشأ الشريف الحسني السجلماسي مولاي علي الشريف الذي تشير كتب الأنساب والتراجم إلى أن حياته التي امتدت 85 سنة في كل من سجلماسة وفاس وشمال المغرب وكذلك في المغرب الصحراوي على امتداد طريق ركب الحاج السجلماسي، كانت مفصلة إلى ثلاثة أقسام: قسم للعبادة وتنظيم تربية الأتباع والمرافقين له. وقسم للحج وتنظيم طريقه ورياسة ركب حجاج سجلماسة. وقسم آخر كان يسافر فيه يرسم الجهاد في كل من شمال المغرب والأندلس وفي

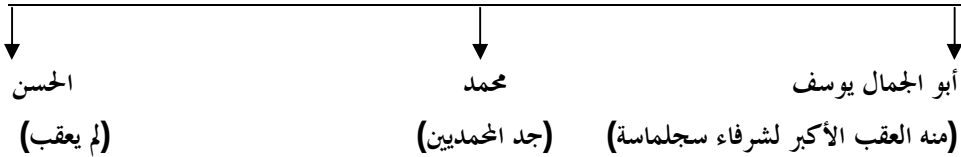
\*- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي - شعبة التاريخ - جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس.

الصحراء لتأمين طريق ركب الحجيج وما يرافق ذلك من نظام القوافل التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء<sup>1</sup>.

وقبل أن نواصل جهود مولاي علي الشريف في حياته نضع الرسم النسبي له كما يلي في هذا المشجر:

مولاي علي الشريف

حوالي 762 إلى 847هـ



#### مشجر رقم 1: أبناء مولاي علي الشريف الأكبر (صاحب الضريع الأشهر بالريصاني)

وتأسيسا على ما سبق يتبين أن عصر مولاي علي الشريف عرف أحداثا جساما كبرى محلية وعامة في المغرب ودولية مرتبطة بالتاريخ العام للعلاقات بين حوض البحر المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء، ونتابع ذلك كما يلي:

**أولا:** اندراس ونهاية مدينة سجلماسة: عمرت سجلماسة في تاريخها الزمني من 140هـ إلى حوالي 796هـ، فقد شهد مولاي علي الشريف وهو في ريعان شبابه سجلماسة تتحول من مدينة آهلة معمورة بالسكان مسورة إلى مدينة مهجورة في أبسط الحالات، حيث هجرها سكانها بعد أن حاول بنو مرين تدمير أسوارها فيما بين 772هـ و783هـ وأكمل نهايتها كمدينة معمورة من هاجر إلى إقليم تافيلالت وإقليم سجلماسة، فقد تآكلت عليها وتهيجت بها القبائل التي استهدفتها بالهجرة من قبائل صنهاجة والتجمع العطايي الأول، بالإضافة إلى تكتل عرب المعقل من تجمع عرب المنبات وبعض عرب الشبانات ومن انضم وانضاف إلى حلفهم مثل بني حسان وذوي منصور، حيث تعرضت المدينة إلى هجومات هذه التجمعات القبلية في نهاية القرن الثامن للهجرة. ونتيجة لضعف السلطة المركزية بالمغرب الأقصى وتحكم القوى المحلية والقبلية في مجالاتها، صارت المناطق الجنوبية تعيش حالة اضطراب في أحوال القبائل البربرية الأمازيغية على امتداد الأقاليم الجبلية ومناطق المراعي في السهوب وكذلك حالة من التفسخ نتيجة تدخل العناصر العربية المعقلية في الشؤون السياسية. وكان لصراع أولاد حسين مع الأحلاف بالغ الأثر في إذكاء وضعية الفوضى التي عمت سجلماسة بعد موت السلطان أبي عنان. فمنذ سنة 762هـ/1360-1361م، تدخلت بطون ذوي منصور في الشؤون السياسية

بشكل لم يسبق له مثيل، وانعكست خلافاً على جهود أبناء أبي علي عمر في الاستقلال بمناطق سجلماسة<sup>2</sup>.

وقال كودينيو Godinho بأن سجلماسة خربت سنة 763هـ/1363م من طرف الأحلاف وأولاد الحسين<sup>3</sup> وعليه فإن الصراع فيما بين هؤلاء هو المسؤول عما عرفته المنطقة من تراجع. وقد استمرت سجلماسة قائمة بعد هذا التاريخ الذي أشار إليه كودينيو بدليل توفر عملات ذهبية ضربت بسجلماسة في عهد السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز (796-811هـ/1393-1408م)<sup>4</sup>.

مثلت مرحلة حكم أبي العباس أحمد بعد بيعته الثانية بفاس (حكم مرتين 778-786/789-796هـ) مرحلة انقراج في صراع بطون ذوي منصور بسجلماسة. ويرجع السبب في ذلك إلى كون زعيم أولاد الحسين يوسف بن علي ابن غانم كان منشغلاً بالوضع السياسي في العاصمة المرينية فاس. وكان يدعو إلى السلطان أبي العباس أحمد ويراسل سلاطين غرناطة في أمر إعادته إلى المغرب. وكان من نتائج ذلك ذهاب أغلب جموع أولاد الحسين من القادرين على حمل السلاح من مناطق تيزمي وسجلماسة إلى المناطق المجاورة لفاس للمشاركة في حصار السلطان أبي العباس للمدينة. وكان لانسحاب يوسف بن علي ابن غانم عن مناطق سجلماسة أثره في استقرار أوضاع المنطقة، وهو ما سمح لعرب الأحلاف بالسيطرة عليها دون منازع، ولكن عودة أولاد حسين إلى تيزمي بعد نجاح أبي العباس أحمد في دخول فاس كان يعني عودة أوضاع سجلماسة إلى سابق عهدها من الصراع والتنافس بين الطرفين. وكان من شأن مساعدة يوسف بن علي ابن غانم للسلطان أبي العباس أحمد المريني بأن يمكن أولاد الحسين من الحظوة في منطقة سجلماسة، لكن هذه المدينة لم تكن خالية من نفوذ منافسيهم من عرب المنبات والعمارة الذين استغلوا فترة غيابهم بفاس لفرض سيطرتهم عليها. ومن ثمة، فإن عودة أولاد الحسين إلى مناطق سجلماسة معناه اشتعال نار الفتنة من جديد بينهم وبين الأحلاف<sup>5</sup>.

وبناء عليه يسهل تفسير ما كتبه الحسن الوزان حول تخريب مدينة سجلماسة في حياة مولاي علي الشريف، حين قال بأن أهلها ثاروا في عهد أبي العباس وخربوا السور الخارجي للمدينة وقتلوا الوالي وتفرقوا في القصور الكبرى الحصنة سنة 796هـ/1393م<sup>6</sup> ويستفاد من ذلك ثلاث قضايا: أولها ثورة الأهالي، وثانيهما قتل الوالي، وأخيراً التحلي عن سكنى الحاضرة واللجوء إلى سكنى المداشر والقصبات أي القصور بالمعنى الفيلاي.

وقد كان عرب المعقل من أولاد الحسين على علاقة طيبة بالسلطان أبي العباس أحمد المريني، وهو ما لم يرق أعداءهم عرب الأحلاف، وهكذا فإن قتل والي سجلماسة قد تم على يد الأحلاف انتقاماً لأنفسهم من المرينيين وأولاد الحسين على حد سواء، ومعنى هذا أن المدينة عاشت مدة تحت وطأة

الحصار قبل أن يخرب سورها من طرف عرب الأحلاف الذين أبعدوا عن المدينة بعم عودة أولاد الحسين من فاس<sup>7</sup>.

وارتباطا بذلك فإن مولاي علي الشريف قد عاصر هذه الأحداث، ويظهر أنه قد انتقل في غمرتها من تافيلالت إلى فاس، حيث أقام بعدوة القرويين وسكن الدار المعروفة بانتسابها إليه في محج "جزاء ابن عامر"<sup>8</sup> قريبا من حي رشم العيون، وما زالت هذه الدار معروفة ب"دار مولاي علي الشريف" وتعاقب على شرائها كثير من بيوتات أهل فاس، ومن بينهم "آل التازي سعود"<sup>9</sup>.

وإذا كانت المدينة المغربية قد عرفت ضعفا بينا في هذه الفترة بصفة عامة، فإن بعضها لم يستطع مقاومة ما أملتته هذه المرحلة من مستجدات واختفت نهائيا من الخريطة الحضرية للمغرب الأقصى، ولم تكن سجلماسة هي الوحيدة التي لقيت هذا المصير، فمدينة تامدلت التي أسست سنة 212هـ/828م، منذ عهد الأدارسة، خربت في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، بعد أن أثر تحرك قبائل ذوي حسان على استغلال مناجم الفضة بها، وأثر على نشاطها التجاري بسبب انعدام الأمن، كما عرفت مدينة عوام المصير نفسه<sup>10</sup>. ولعل هذا الوضع هو الذي جعل مولاي علي الشريف يرتب حملاته لتمهيد وضبط طريق التجارة الصحراوية مع سجلماسة بالإضافة إلى تأمين طريق الحج وركب الحجيج العابرين لها.

ثانيا: بداية تحول طرق التجارة من الصحراء الإفريقية الكبرى إلى الملاحة التجارية البحرية على المحيط الأطلسي: مع بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي حدث تحول كبير في تاريخ العلاقات التجارية الدولية ابتداء من البحر الأبيض المتوسط شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، حيث ظهرت في هذا الفترة بالذات حركة دولية كبرى في تاريخ التجارة العالمية وتطورت معها الملاحة البخارية التي أدت إلى نقل مفهوم التجارة الملاحية والعالمية من طابعها الإقليمي المحلي إلى مفهومها الدولي العالمي، وبدأ طور جديد في التاريخ الاقتصادي والتجاري العالمي، مما أدى إلى بداية حركة الاستعمار الأوروبي في العالم آنذاك، فتغيرت الظاهرة المحلية الإقليمية التجارية إلى واقعها السياسي، وانتقلت حركة العلاقات الدولية من "محدودية الاتصال" إلى "قاعدة التواصل الدولي" فبدأت الانطلاقة لهذا المفهوم من جنوب غرب أوروبا حيث اجتمع في هذه الحركة أسطول الشمال الغربي للبحر الأبيض المتوسط المكون من البرتغال وإسبانيا ومنطقة المانش الإنجليزي - الفرنسي مع الأقاليم الإيطالية وأواسط أوروبا الغربية، فتكون أسطول التجارة العالمية من هذه القوى الغربية التي تتحرك لاكتشاف العالم وتطوير تجارتها وتوسيع مجال نفوذها، وبالتالي تكوين هيمنة تجارية جديدة في العالم تحولت بعد

ذلك إلى قوة استعمارية ذات معاني كبرى وهي الاستعمار التجاري والاستعمار الاقتصادي والتحكم السياسي والعسكري.

ونحيل هنا على دراسة الباحث ف. هايد W.Heyd<sup>11</sup> الذي حلل ودرس تاريخ التجارة العالمية في العصور الوسطى مبرزا ما قدمته حركة الكشف الجغرافية في بداية عصر النهضة.

دفع هذا الوضع الزعماء المحليين إلى البحث عن ظروف جديدة لإعادة تنشيط هذه التجارة من جديد وتقوية الروابط بين شمال الصحراء وجنوبها، فصارت "قضية مطلوبة" لدى الزعماء الناشئين في بلاد المغرب خلال القرن 9هـ / 15م<sup>12</sup>، ومن بين هؤلاء ما تظهره وتحدث عنه مصادرنا المغربية زعماء تافيللات ورجالها مثل مولاي علي الشريف الحسني (تـ 847هـ / 1443م) الذي حاول إعادة ربط سجلماسة بالطريق التقليدية القديمة تافيللات - مالي وإحياء طريق الحج الصحراوي من سجلماسة - توات - وركلة - أكاذ ثم تنبكتو وكانم برنو وحوض النيل الأوسط إلى شواطئ البحر الأحمر.

ورغم أن هذه المحاولة لم تبسطها المصادر القديمة عندنا، بل مرت عليها مرور الكرام وأشارت إليها كتب الأنساب<sup>13</sup>. وفصلتها تفصيلا مفيدا كتب الطبقات السودانية الإفريقية مثل ما ذكره ابن ود الله في تراجم أولياء بلاد السودان الشرقي<sup>14</sup>.

وقد تميزت مرحلة النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي التي برزت فيها ظواهر أخرى في المجتمع المغربي الجنوبي، حيث نلاحظ تحرك التجمعات القبلية التي طردتها الصحراء الإفريقية الكبرى، فانتقلت جموع اتخذت محاور متعددة في اتجاه الشمال محور الصحراء الكبرى في اتجاه سجلماسة "وهي الطريق الوسطى" التي تفرعت في اتجاه وركلة والأغواط ثم سجلماسة، وطريق أخرى في تخويم الصحراء إلى حدود شنقيط وتكنة في اتجاه الشمال الغربي.

وفي هذه الفترة بالذات كانت حركة القبائل المعقلية الرحل تتبع هذه الجهات في اتجاه الشمال فانقسمت إلى قسمين:

أ - قسم جموع القبائل العربية المعقلية التي تحركت عبر المناطق الساحلية لجهات غرب نهر السنغال إلى موريتانيا الحالية وبلاد شنقيط، ثم إلى شمال الأقاليم الشنقيطية حيث بلاد السوس وحوض مصب نهر درعة.

ب - الشطر الثاني هو الذي اتجه نحو الأقاليم الشمالية الوسطى عبر طريق تنبكتو - سجلماسة التقليدية، مكونت هذه الجموع بشطريها "إمارات عربية معقلية متنقلة" مشكلة في إفريقيا الغربية وفي أقاليم شنقيط وما والاها ما يعرف تاريخيا بـ "مجتمع البيضان"<sup>15</sup>. هذا المجتمع الذي ورث منطقة نفوذ

الدولة المرابطية التي ولدت في أحضان هذه المنطقة وخرجت من رحمها الإمارات الصنهاجية الوسيطية، فكانت الإمارات التي ظهرت في القرن التاسع وحتى العاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ذوات أهمية محلية كبرى كونت علاقاتها القبلية عنصر الإرشاد والتوجيه والتحكم في الطرق البرية الصحراوية التجارية المتبقية من التاريخ الوسيطى الإفريقي، والتي أصبحت بدورها دويلات قبلية أميرية محلية ببعدها القبلي، امتزجت فيها القبلية الصحراوية الممتدة في تجمعات الطوارق بعد ذلك<sup>16</sup>.

أصبحت الظاهرة العربية في هذه الإمارات هي القوة البارزة في تجمعاتها، ومن ذلك ما كان له حضور في كتب التاريخ الإفريقية ونفوذ في الحياة الاجتماعية الصحراوية المغربية، وتمثل لذلك إمارة المغافرة وإمارة الترازة وما شاكل ذلك من العناصر التي كانت حياتها تمتد في الترحال والتنقل في المجال الصحراوي بالجمال وما تيسر لها من أنواع الماشية الأخرى.

هذا الوسط الاجتماعي التاريخي حاول مولاي علي الشريف العمل بمجهود كبرى على إلحاق طريق تنبكتو - سجدماسة بتافيلالت، ولم يحاول إطلاقا حسب كتب الأنساب وحسبما تيسر لنا من مراجع، الاتصال بأجنحة قبائل الصحراء في الواجهة المحيطية المغربية حيث إقليم السوس الذي احتكرته القبائل المعقلية الأخرى والتي أصبحت تعرف بعد ذلك بالقبائل السوسية العربية التي امتد انتشارها على الشاطئ المغربي المحيطي من الشاطئ الحاذي لبلاد شنقيط إلى حوض نهر درعة وواد سوس، فكانت قبائل عربية معقلية من الأهمية بمكان، تحولت في حياتها الاجتماعية من قبائل رحل رعاة قنم برعي الماعز في الأغلب ورعي الجمال إلى قبائل عربية معقلية تنزع إلى الاستقرار وتحديد مجال الاستيطان والبقاء، فهي أكثر استقرارا في الأقاليم التي هاجرت إليها من القسم الآخر الذي تكونه القبائل المعقلية التي انتشرت في الجنوب الشرقي الممتد عبر الطريق الوسطى لإفريقيا جنوب الصحراء والتي كانت تميل إلى الانتشار في جهات سجدماسة ويمتد نفوذها ومجال تحركها إلى تلمسان وما والاها غربا.

يضاف إلى ذلك جناح آخر من أجنحة التحرك المعقلي وانتقال قبائل الجنوب الغربي إلى الشمال، هذا الجناح هو الذي سيصبح قوة بشرية تعتمد الأسرة السعدية الناشئة في إقليم السوس وأحواض أنهاره باعتبار أن هذه الجهات السوسية كانت منشأ لتجمعات قبلية ذات مترع روحي وبرزت وبرزت معها زوايا في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد ترتبط بالاتجاه الصوفي الجزولي الذي أعطاه قوة روحية عما كان قبل في المنطقة، وبذلك صارت الجزولية بارتباطها بمشيخة ورياسة محمد بن سليمان الجزولي كيانا قياديا في المنطقة، وعند التحرك القبلي من الجنوب إلى الشمال ازداد الكيان الديني والتجمع البشري قوة تبعث على الامتداد إلى الشمال، وهو ما امتد امتدادا واسعا

في محورين: المحور الأساسي من وادي درعة إلى الشمال الغربي عبر الشواطئ الشمالية في أحواض نهر سوس وحوض نهر تانسيفت في الشمال ثم حوض أم الربيع، والمحور الآخر الرابط بين سجلماسة ووركلة.

هكذا يظهر الارتباط العقلي الغربي بالسواحل المغربية على المحيط الأطلسي، وهذا التوجه، دفع حركة العقلية في جناحها الثاني الممتد من جهات تلمسان إلى فاس وسجلماسة، ثم يمتد جناح كبير منه في الأقاليم الوسطى إلى سجلماسة ثم فاس، أي التحرك العقلي في هذه الجهات اتخذ محورين: تلمسان - فاس - سجلماسة ثم محور إقليم توات - إقليم أدرار وتيكوراين - سجلماسة، بمعنى أن الانتشار والسيطرة العقلية اتخذت بعدين وقوتين بشريتين كبيرتين:

أ - القوة القبلية العقلية السوسية على الشواطئ الجنوبية الغربية وتوجهت نحو وادي درعة وتكونت منها الدولة السعدية بقيادة الحركة الصوفية الجزولية.

ب - القوة القبلية العقلية التي يمكن أن نعتها بالقوة الشمالية المهاجرة من الجهات الوسطى إلى الجهات الشمالية التي تربط بالمدن والمحور التقليدية القديمة مثل تلمسان، وفاس وسجلماسة وما والاها. وكان أبرز قبائل هذه المنطقة: الشبانات، وبني حسن، وذوي منصور، وذوي بني عبد الله، وذوي منيع، وأولاد جرير والأحلاف. هذا الوضع القبلي الذي انفجر بانتشاراته في المناطق الجنوبية أصبح يتحكم في عنصرين اقتصاديين هامين هما: عنصر طرق التجارة في الصحراء الإفريقية وعنصر طريق الحجيج السجلماسي والشنقيطي.<sup>17</sup>

ثالثا: أزمة الحكم والنظام السياسي المغربي من أواخر بني مرين إلى نهاية بني وطاس وقيام

السعديين (763-916هـ) / (1361-1510م): على امتداد هذه المرحلة التي عاصرت أواخر الدولة المرينية في تاريخ المغرب الأقصى وعهد حكم سلاطين بني وطاس إلى بداية عهد الدولة السعدية مع محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله المتوفي عام 1517م، كان الوضع السياسي في المغرب قلقا جدا ومتأزما تأزما شديدا ويتطلب إنقاذا للمأساة السائدة فيه، حيث برزت في العهد المريني مسألة تولية الحكم في الدولة وإلى من تسند ومن يتولاها تولية شرعية عرفية واجتماعية<sup>18</sup>، فكانت الدولة تتأرجح بين يدي رجال لهم نفوذ في البلاد ولهم سلطة في إسناد الأمر إلى من تشخص أبصاره إلى التسلط عليه. فكانت الدولة دولة متسلطين وزعماء القبائل، وتوقفت عجلة سير البلاد واضطربت أحوال المجتمع وانشطرت الدولة إلى زعامات قبلية وانعدم الأمن وفسدت السابلة وانتشر قطاع الطرق وظهرت في مجموع المغرب ما يعرف في النظام القبلي ب"ظاهرة الزطاطة"<sup>19</sup>. وهذه الظاهرة عبرت عن دخول المجتمع المغربي في ظرف انقسامي بالمعنى الأنثروبولوجي<sup>20</sup>.

كان هذا الوضع ملزما من الناحية الاجتماعية بخلق أحلاف قبلية متعاطفة فيما بينها ومتميزة، فأهل الجهات الشرقية يكونون في منطقة أنكاد وما والاها في اتجاه الجنوب إقليما ساليا يتكلم لهجة أهل المغرب الشرقي ويكون نماذج من التفاعل والتنميط الإنتاجي للمواد الصناعية المرتبطة بماشيتهم وأنعامهم وأغنامهم والتي أدت إلى تكوين "ثقافة اجتماعية حضارية لغوية" تمثل أهل الشرق المغربي الرحل في العصور التاريخية التي طبعت الواقع ابتداء من منتصف القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد.

فأين كان مولاي علي الشريف في زحمة هذه الأحداث؟ وما هو دوره؟

يتضح الجواب على هذا السؤال اخوري بالنسبة للبحث الذي نقوم به في تاريخ مولاي علي الشريف، ونحن نركز على شخصية "عمود الأسرة" في هذا القرن ائحد زمنيا وهو مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل المتوفي على أرجح الأقوال والروايات سنة 847هـ / 1443م<sup>21</sup>، وقد تزامن ميلاد مولاي علي الشريف مع ظهور محاولات محلية لقيام إمارات مستقلة في سجلماسة كما هو الشأن مع سلطة عبد الحليم بن أبي علي عمر على المدينة وفي هذا كلام طويل.<sup>22</sup>

يتضح من هذا كله أن مولاي علي الشريف عاصر الأزمة التاريخية الكبرى للدولة المغربية على مستوى المغرب الأقصى خصوصا وعلى مستوى المؤثرات الخارجية المحيطة بالبلاد مثل ما كان سائدا من أحداث في الغرب الإسلامي بالأندلس وما كان قائما في مناطق الصحراء الكبرى الإفريقية، وفي الامتدادات الشرقية لطريق الحج والحجيج التي كانت تربط بلاد الغرب الإسلامي بوادي النيل ومصر شرقا في اتجاه الطريق التاريخي الجغرافي الرابط بين مصر وبلاد الحجاز عبر "السويس" والبحر الأحمر وهذه الطريق الرابطة لهذه الجهات مع المدينة المنورة ومكة المكرمة أي بلاد الحجاز والحرمين الشريفين اللذين كانت تقصدهما ركاب أهل المغرب وإفريقيا لأداء شعائر ومناسك الحج والتبرك بمهد الإسلام وموقع ميلاد الدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.<sup>23</sup>

رابعا: بداية ميلاد جيوش المتطوعين للجهاد: إن مولاي علي الشريف في هذا الظرف وهو بداية القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد عمل جهده في الاتصال بقبائل المنطقة التي ارتبطت به في تافيلالت وفي المغرب الشرقي عموما وكذلك في المناطق الأخرى الجنوبية الغربية في اتجاه وادي درعة وحوض نهر السوس، فقد اتصل بقبائل هذه الجهات الجنوبية الغربية ودعا إلى التواصل بين أهل سوس وأهل سجلماسة تافيلالت وأحلاف قبائل أخرى الأمازيغ لتكوين قوة جماعية تدافع عن التراب المغربي الذي هددته القوى الخارجية وهددته أيضا الاختلافات الداخلية المحلية، الشيء الذي أدى إلى بروز



حركة جديدة في المجتمع وتحرك جموع أشراف حسنين آخرين في منطقة السوس وخاصة منطقة تارودانت وما والاها في الجنوب الغربي، حيث كانت تتحرك في هذه الجهات قبائل عربية معقلية مترحلة بقضها وقضيضها، بشعارها وأوبارها، من الجنوب إلى الشمال مكونة وحدة قبلية سوسية. هذه الوحدة وهذه الحركة هي التي أطرتها ودعمتها جموع الأشراف الحسنيين الزيدانيين الذين يتهبأون لإنشاء "سلطة" سياسية ودينية برعاية المولى محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله المتوفي سنة 1517م. هؤلاء هم "السعديون الزيدانيون" الذين تبنا الدعوة الدينية والحركة الصوفية لـ محمد بن سليمان الجزولي المتوفي سنة 870هـ/1465م التي وافقت نهاية الأسرة المرينية بمقتل آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد.

وهكذا كان مولاي علي الشريف معاصرا لتحركات سياسية دينية منطلقة من الجنوب المغربي محققة انقلابا سياسيا وثقافيا واجتماعيا في مغرب القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهو "نقل السلطة السياسية من الأسر الأمازيغية إلى الأسر العربية الشريفة الحسنية": الزيدانية السعدية في سوس وحوض وادي درعة والأشراف الحسنيون السجلماسيون في سجلماسة وإقليمها. ولعل الظروف التاريخية الخبيطة بالمرحلة والمؤطرة لها هي التي دفعت إلى تحقيق هذا التغيير الكبير وإعطاء زمام الأمور للأسر الشريفة الحسنية: الزيدانيون في سوس والقاسميون الحسنيون في سجلماسة أي أبناء الحسن الداخل بن القاسم.

فكانت سوس وتاكمدات ودرعة مرجعية المكان السعدي وسجلماسة وتافياللت مرجعية المكان الحسني السجلماسي العلوي.

ونطلق من هذا الواقع إلى داخل التراب المغربي، حيث نجد أن مولاي علي الشريف قد اتجه في دفعاته وحركاته من تافياللت إلى شمال المغرب عبر الطريق التجاري المعروف سجلماسة- فاس متخذاً محطات الاستراحة للاستقرار، فقد برزت في الوثائق والنصوص المشهورة المترجمة لمولاي علي الشريف محطة "جرسلوين" قرب وادي كبر الذي يعتبر أحد روافد وادي زيز بمحاذاة قصبة الريش حالياً، ومحطة التلالة والقصابي على وادي ملوية الوسطى ثم بعد عبور نهر ملوية في اتجاه الطريق المؤدية من القصابي إلى ميسور ووطات الحاج، ثم نواحي تازة وإقليمها إلى فاس أو من ميسور إلى منطقة سكورة وصفرو إلى فاس. هكذا اتخذ مولاي علي الشريف المنطقة الوسطى من المغرب مجالا لتحركه وبسط نفوذه والاعتراف به كشريف زعيم لحركة روحية سياسية ذات بعد له أهميته الكبرى وهو أنه من الأشراف القرشيين الذين تتوفر فيهم شروط القيادة والزعامة والإمامة الشرعية، يسمع له الأتباع ويطيعون أوامره<sup>24</sup>، فكانت المرحلة الصعبة التي عاصرها في تاريخ بني مرين الأخيرة وهي ما بين

**810هـ/1407م - و847هـ/1443م** تحمله على تهينة الجوع وتجييش القبائل في هذه المنطقة للدفاع عن الأقاليم المغربية في الشمال عبر الجهات المؤدية للأندلس التي استحر فيها القتل واستفحل تدخل القوة الإيبيرية النصرانية وفي شمال المغرب خصوصا بعد سقوط سبتة بيد البرتغاليين سنة **818هـ/1415م**. فتتج عن هذا كله أن مولاي علي الشريف اقتصر نشاطه على رئاسة جموع المجاهدين الذين كان هدفهم حماية الأقاليم التي لا تزال تحت سلطة المسلمين بالأندلس، وكان فلك سعادته هو تأليف قوة شعبية تستنصر به وتستصرح بمبادئه وأصول دعوته الجهادية، وقد بسطها أحد فقهاء حفدته من بعد وفاة مولاي علي الشريف<sup>25</sup> وفصلها تفصيلا المؤرخ المتخصص في الأسرة العلوية في عصورها الأولى المؤرخ ابن دفين طيبة<sup>26</sup>. وكان لهذا الدور الذي قام به مولاي علي الشريف سند قوي مبني على قوة زعامة الشريف السجلماسي واستصراخه للمجاهدين الذين يقطع بهم البحر الأبيض المتوسط عبر جبل طارق تحت حماية ما تبقى من أسطول المسلمين المرينيين والحفصيين.

وقد اعتمد مولاي علي الشريف على موافقة السلطان المريني الذي بارك جهوده ولكن قوة الأسطول الاسباني كانت أعنى من الاندفاع العاطفي الديني عند المسلمين المجاهدين الذين لا يملكون إلا إيمانهم بنصرة المسلمين ووجوب الحماية التي تولى رياستها الشريف الحسني السجلماسي مولاي علي الشريف. فكان يعمل على جمع الجموع وحمل الرجال على الانتقال إلى الأندلس. والملاحظ في هذه الحركة أنه لم يكتف بتجييش قبائل الشمال وأهل الأندلس، وإنما استدعى واستصرخ قبائل أهل السوس: "...كتب إليه أهل غرناطة يشكون إليه أمر الطاغية، فأرسل لأهل السوس الأدنى والأقصى وقبائل سجلماسة يأمرهم بالجهاد وأن يكون الاجتماع بثغر طنجة، فلما اجتمعوا بها قطعوا للجزيرة..."<sup>27</sup> وكانوا في خليط من الأمازيغ والعرب المعاقلة المستقدمين من الصحراء المغربية.

ظهر من ذلك كله تقسيم خريطة نفوذ الأسرتين الشريفتين في الجنوب المغربي:

- المناطق الوسطى انطلاقا من سجلماسة - تافيلالت كانت لمولاي علي الشريف وأبنائه، وهذا لم يتحقق عمليا إلا في القرن اللاحق أي ابتداء من أواسط القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، في حين تحقق للشرفاء الزيدانيين السعديين في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر للميلاد.

- أما المناطق الجنوبية الغربية، فقد اختصت بها الحركة السعدية السوسية التكمندارتية، وقد نفتت حولها قبائل الجنوب الغربي من المغرب مجتمعها "البيضاني" وقبائلها الصنهاجية والمصمودية السوسية<sup>28</sup>.

وقد تخلد دور مولاي علي الشريف الجهادي في مصادر تاريخ المغرب، وكان من بين ذلك ما سجلته المراسلات التي كانت تحتها على النهوض لقيادة المجاهدين في المناطق المستهدفة من دار الإسلام بالأندلس والمغرب، ومن أبرز النصوص التي سجلت لهذا الحدث تلك المراسلات التي وجهت إليه من علماء ومجاهدي المغرب والأندلس، ويكفي أن نشير إلى الديباجة التي حُليت بها تلك المراسلات، قال اليفري رحمه الله: قد وقفت على رسائل بعث بها إليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز إليهم واستنفار المجاهدين، إلى حماية بيضتهم ويذكرون له أن كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالا كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب. وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه: "إلى الهمام الضرغام، قطب دائرة فرسان الإسلام، الشجاع المقدام، المصور الفاتك، الوقور الناسك، طليعة جيش الجهاد، وعين أعيان الأنجاد، المؤيد بالفتح في هذه البلاد، المسارع على مرضاة رب العباد، مولانا أبي الحسن علي الشريف"<sup>29</sup>. وفي ذلك يقول ابن دفين طيبة: "وجاءته هدايا من أهل الأندلس وأرسال رافعين إليه الشكاية من الطاغية، عدو الله أدفونش ومن أيده من احلاف العرب"<sup>30</sup>. بناء على ذلك وسع مولاي علي الشريف نطاق دعوته إلى الجهاد لتشمل قبائل السوس وقبائل العرب يرغهم بالنجدة والجهاد، "فلما أحس باجتماعهم ركب مع سيدي محمد بن أبي إبراهيم (الهالي) فوجد بطنجة قوما لا تعد ولا تحصى والسفن تنتظرهم، فدخل الجزيرة وهزم عدو الله أدفونش ومن معه وأخذ أموالهم وسباياهم"<sup>31</sup>. ونلاحظ أن المصادر لم تشر إلى تاريخ مضبوط ومحدد لتوقيت هذه المعركة التي قام بها وقادها مولاي علي الشريف في عبوره من المغرب إلى الأندلس، كما أننا لم نتمكن من تحديد هذا التاريخ في المصادر الإسبانية والقشتالية<sup>32</sup>. ولعله يتحدد بالفترة الممتدة بين 823هـ و835هـ/1420م-1439م على أساس أن انتقاله للجهاد لم يكن في فترة متواصلة واحدة وإنما كان رسم جهاده في الأندلس مبنيا على اعتبار انتقاله من سنة إلى أخرى كلما توفر له المجاهدون المتجيشون في المغرب والمستعدون للتطوع للانتقال إلى الأندلس.

وكانت في هذا الصدد مدينة بسطة الأندلسية هي مركز قيادته وتنظيم جموعه للجهاد في الأندلس بناء على ما تشير إليه النصوص المذكورة في المصادر<sup>33</sup>. وقد حاول صاحب الاستقصا أن يرجع وقوع هذه الأحداث التي استهدفت جيش مولاي علي الشريف والمتطوعين من باقي المغرب، حاول أن يؤرخ لهذه الواقعة التي عاصرها مولاي علي الشريف وتزعم قيادة جيوشها أن تكون مرتبطة بأحداث سبتة والعمل على استرجاعها بعد أن سقطت بيد البرتغاليين، والنص الذي يحدده الناصري،

هو قوله: "وأظن أن وقعة طنجة المشار إليها في هذه القصيدة هي وقعة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة (841هـ/1437م)<sup>34</sup>."

خامسا: جهود مولاي علي الشريف في الصحراء الإفريقية الكبرى وتأمين طريق الحجيج<sup>35</sup>: من أهم جهود وأعمال مولاي علي الشريف التي تحسب عملا قويا في حياته التي قضاه خلالها النصف الأول من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد هو محاولته التي أراد بها العمل على إعادة النشاط الرئيسي الذي كانت تقوم به طريق سجلماسة في الصحراء الإفريقية وكذلك في الطريق الرابطة بين سجلماسة والجهات الشرقية نحو مصر وواد النيل والحجاز، فقد ضعفت هذه الطريق عندما بدأ اكتشاف طريق البحر على المحيط الأطلسي، واستشعر مولاي علي الشريف ضعف هذا الطريق خلال الكشف الجغرافية التي كانت تقوم بها الدول البحرية في الشمال، ولهذا عمل على تكوين مجموعة بشرية تساعد على إحياء هذا الطريق وتخوض به رمال الصحراء التي كانت تصل به بين سجلماسة وبلاد السودان، واستطاع أن يقوم بإحياء هذا الطريق الصحراوي ويجعله مكونا من وجهتين عبر سجلماسة - توات - تيكورارين وورغلة. ثم تتجه هذه الطريق نحو الجنوب الشرقي إلى أن تصل إلى أكاذ ومنها إلى فزان ثم شمال مالي حيث كانت مملكة مالي تسيطر على هذه الجهات الشرقية في اتجاه "كانم - برنو" إلى أن تصل إلى وادي النيل حيث تتفرع إلى قسمين: فرع يتجه إلى الجنوب الشرقي وفرع آخر يسير إلى بلاد النوبة ويتجه إلى شمال مصر ودلتا واد النيل. وتلتقي هذه الطريق مع الطريق الآخر الساحلي الآتي من الجهات الشمالية ثم يمر عبر شمال الصحراء إلى أن يصل إلى طرابلس ثم يعبر برقة وشمال ليبيا والجبل الأخضر ثم الإسكندرية إلى أن يصل إلى مناطق العبور إلى الطريق المصري جنوب سيناء ثم طريق مصر - الحجاز.

هذه الطريق عمل فيها مولاي علي الشريف بجهوده الكبرى على إحيائها وإعادة تنظيمها، ولكن المصادر التاريخية المعاصرة له لم تشر إلا إلى أعماله التي كانت على هذا الطريق الصحراوي بين سجلماسة وأكاذ. وقد أشار إلى ذلك النسابون ومن أهمهم ما سجله واحتفظ به لنا في ترجمة مولاي علي الشريف كل من صاحب الأنوار الحسنية والفضيلي صاحب الدرر البهية والزكي العلوي في مطالع الزهراء، ونقتبس النص الجميل الذي تذكره جميع كتب الأنساب وتدون بذلك حياة مولاي علي الشريف تدوينا يكاد يجعل شخصيته شخصية أسطورية، ولكننا نحتفظ به لكونه يعطي لعلاقة سجلماسة والجنوب الصحراوي المغربي قوة بارزة تربط بين تافيلالت والجهات الصحراوية المغربية التي كانت طرق القوافل تعبرها قبل مولاي علي الشريف، يقول صاحب مطالع الزهراء: "وحكي عنه رضي الله عنه أنه دخل بلاد السودان برسم الجهاد وفتح الله على يديه كثيرا من المدن هناك منها مدينة

أكدج، بكاف معقودة، وهي مدينة عظيمة من مدن السودان<sup>36</sup>، وليس لها إلا باب واحد، مدورة بحفير وعليه قنطرة من حديد يمرون عليها للمدينة بلا طريق، وكذلك إذا جن الليل، فلما حاصرها مولانا علي الشريف مع جيشه رفعوا تلك القنطرة وبقيت المدينة بلا طريق، فأجهز رضي الله عنه على فرسه، فقطع الحفير، فلما رأوا منه ذلك رموه بصخرة عظيمة من حديد صادفت الفرس وسلمه الله هو بدرفته، فتساقط عليه أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، فأخذ المدينة عنوة...<sup>37</sup>.

وبذلك انفتح أمام مولاي علي الشريف الطريق نحو كام- برنو وبلاد النوبة على وادي النيل، وتهدمت الطريق الشرقية الصحراوية إلى الحج. ويعني ذلك في مجموعه أنه تحرك من تافيلالت بجيشه من المتطوعة للجهاد في إفريقيا جنوب الصحراء، وقد تمكن من تهديد هذه الجهات وأعاد العلاقة التجارية بين سجلماسة وإفريقيا جنوب الصحراء مما هيا له تحقيق هدفين كبيرين: أولهما هو إحياء طريق الحج الجنوبي واعتمد رعاية أهل إفريقيا في هذا الطريق، فكان ركب الحجيج السجلماسي الذي ينتقل عبر هذا الطريق الجنوبي خاضعا لإمارة مولاي علي الشريف، وقد استفاد منه استفادة كبيرة مكنته من توفير رصيد مالي جعله يقدم على "سك عملته!"<sup>38</sup> ولم تذكرها كتب التاريخ بتفصيل كامل وإنما أشارت كتب الأنساب إلى ذلك باختصار شديد بما يفيد أنه كان ذا نفوذ مالي وقوة اقتصادية عبرها إفريقيا واتجه إلى أداء فريضة الحج مادام على علاقة قوية بإفريقيا جنوب الصحراء، وتفيدنا هذه الإقامة التي أقامها بالصحراء الإفريقية ما هيا له مكانة مالية وجماعة بشرية تطوعية جعلته ينتقل إلى أداء فريضة الحج مرارا ويشرف على "ركب الحجيج السجلماسي" أحي به ما اندرس منذ المرحلة الأولى من تاريخ ركب الحجيج التي كانت أساسا لاستقدام الحسن الداخل الجد الأعلى لمولاي علي الشريف، وأعطاه قوة مالية وبشرية كونها من تحركاته وما جمع معه من أتباع كان يجاهد بهم ويشرف عليهم أيضا رفيقه حفيد إبراهيم الهلالي العمري، فقد برز كل من مولاي علي الشريف والهلالي في هذه الأصقاع الإفريقية وتمكن من توفير رصيد ذهبي وفضي ومن الاحتفاظ بقسط كبير من الذهب والفضة بالإضافة إلى الخدم والأتباع.

سادسا: جهود مولاي علي الشريف التأسيسية لنظام اجتماعي جديد يطمح إلى تحقيق وحدة تافيلالت وإعادة تنظيمها بعد اندراس مدينة سجلماسة.

1- الإشراف على تنظيم الأحلاف القبلية وإعادة ترتيب الروابط بين إقليم تافيلالت والبلاد المغربية الأخرى.

بعد أن عاد مولاي علي الشريف من حركاته الكبرى التي تكررت مرارا طيلة خمسة عشر سنة بعد سقوط سبتة بيد البرتغاليين وكانت ضمن حركات الجهاد في الأندلس التي ذكرت النصوص أنها

وصلت إلى ثمانية وعشرين حملة اختلفت في الزمان والمكان وكلها من أجل الدفاع عن الحضور الإسلامي بعد اشتداد خطر حروب الاسترداد بشروورها وويلاتها.

وأحداث الأندلس هذه لم تشغل مولاي علي الشريف عن تمهيد طرق القوافل والحجيج الفيلالي والصحراوي، ولذلك تصدى لتمهيد هذا الطريق وإعادة إحيائه بعدما أصابه من تدهور وانفلات أمن وفساد السابلة وفوضى هيمنة القبائل الرحل من معاقلة وطوارق وجموع أخرى. بعد كل هذه الأحداث استقر مولاي علي الشريف في تافيلالت وأخذ يعمل على تكوين نظام اجتماعي يعتمد على اقتصاد التجارة والزراعة في سجلماسة، فأخذ يستصلح الأراضي ويبني المنشآت العمرانية التي توافق النظام العمراني السجلماسي الفيلالي<sup>39</sup>.

وقد استفاد مولاي علي الشريف من تحركاته سواء في الأندلس أو في طريق الحج بإفريقيا جنوب الصحراء وعمل على إحياء الطريق الوسطى الصحراوية العابرة "من سجلماسة إلى تنبكتو"، كما استفاد من كل ما جمعه من أموال وما تمكن من الوصول إليه من أراضي في تافيلالت، فأصبحت شهرته وسمعته تطبق الآفاق في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فاشترى الأراضي والرباع وبنى الدور عبر الطريق التي تربط بين فاس وتافيلالت ولا أدل على ذلك مما بناه في مدينة صفرو وقرسلوين، حيث اتخذ منشآت لزايته وارتبط بالقبائل المحيطة به، ثم أنشأ منشآت أخرى على الطريق نفسها في كل من حوض ملوية الأوسط والقصبات التي كانت قبائل الأحلاف تسيطر عليها. ويلاحظ أن حوض ملوية الأوسط كان تحت سيطرة القبائل العقلية العربية الذين وصلوا بخيامهم وجموعهم من أنكاد وقبائل بني حسن وأولاد منصور الذين انتقلوا من توات وذوي منيع وأولاد جزار والأحلاف وما شاكلهم من القبائل الرحل العربية، فقد هيا مولاي علي الشريف بمساعدة خبراء تجارة القوافل لمحطات للتزول والانتقال عبر طرق الاتصال بين فاي وتافيلالت وأقام في هذه المخطات و"الزالات"، وكان هناك طريق آخر متشعب من هذه الطريق المركزية من حوض ملوية الأوسط إلى ميناء عجرود "السعيدية حاليا"<sup>40</sup>، فهيا فيها الماء ومخازن الاستراحة للمتقلين عبر الطرق، فكانت نزلة القصاي و"عين اشرب واهرب" اخاذية لفتح "تيزي ن تلغمت" ثم الطرق المؤدية لجبل العياشي وزاوية سيدي حمزة ثم فج تولىجت الذي يعبره وادي زيز في بدايته المتجه نحو الجنوب الشرقي ليسقي مدغرة وتافيلالت، فكانت محطات أخرى في اتجاه تافيلالت سجلماسة وأهمها مركز تَدْرَاكْلُوت على نهر زيز قريبا من مركز الريش. ثم في الجهات الأخرى من ضفة وادي زيز حيث يقرب التقاؤه بنهر كبر، وبهذه المنطقة القريبة من وادي كبر وقرية تيطْ نْ علي حيث أقيم بجوارها مركز قرسلوين، فأقام بها مولاي علي الشريف محطة للعبور والتقاء القبائل والقوافل القادمة من سجلماسة أو من فاس.

وفي هذا الملتقى "فرسلوين" اتفق أن اجتمعت القبائل الجبلية من آيت حديدو وآيت عطا وآيت حمزة وآيت عياش وآيت مرغاد ثم القبائل العربية، فاجتمعوا في هذا المركز واحتضنه مولاي علي الشريف وأقام به منشأة معمارية لأقاليم ومن انضم إليه، وأدى هذا الاجتماع إلى تقوية وتنظيم حلف قبلي عربي أمازيغي وهو إعادة إنشاء حلف آيتي فلمان. ويلاحظ في هذا التنظيم الجديد أن مولاي علي الشريف عمل على تقسيم الأسبوع والشهر والسنة لاستفادة القبائل الداخلة في حلف آيت يافلمان، فعين لكل منها وقتا مناسباً لمراقبة الطريق الواصلة ما بين سجلماسة وفاس، فكانت القبائل تفرض على القوافل أتوات وحقوقاً معينة مفروضة، وهي ما يعرف في نظام طرق العبور في التراب المغربي قديماً من قبيلة إلى قبيلة ومن جهة إلى جهة بحق "الزطاطة" وهذا الحق يختلف حسب قوة القبيلة التي تعبرها أو تضمن تسيير القافلة من جهة إلى أخرى ويدخل في هذا النظام حق الماء الذي تتزود به القافلة وحق الظل وحق الاستراحة وحق تقيء الطعام وربما حتى تسيير المواد الغذائية كاللحم والخبز وما يتناسب وغذاء الناس المتنقلين مع القافلة وهو ما يسمى "العوين"، ثم يرتبط بهذا أيضاً توفير العلف لحيوانات النقل وتعهدهم بالمناسب من علف بهائم القافلة.

وقد هباً مولاي علي الشريف هذه الأشياء الضرورية للحياة في هذا الطريق التجاري وأشرف على تنظيمها وحراستها للدفاع عليها، فكان حقيقة مؤمناً للتواصل بين فاس وسجلماسة والمناطق الرابطة بينها، وقد استطاع أن يكتسب بهذا الجهد مكانة قوية جعلت من شخصية مولاي علي الشريف شخصية ضامنة "للواسطة" بين ملوك الدول المرينية الأواخر وبين القبائل الكبرى الواقعة في هذا الحور التجاري سجلماسة - فاس.

كوّن هذا الحلف قوة قبلية ساعدت على خلق تعايش حقيقي بين قبائل الجبال على الأطلس الكبير الشرقي وقبائل أزغار أي مناطق الرعي في السهوب الإستبسية ذات نباتات الحلفاء المناسبة لرعي الماشية من أغنام وماعز وإبل، وخلق بعض القرى المهيأة في أحواض الشعاب والأنهار بالمناطق الشرقية وخاصة على كبر وملوية ثم أيضاً واد الشواطر على الساوره وما والاها.

مكن هذا الجهد أيضاً القسم الشرقي من توحيد قوته وضبط استراتيجيته بالفلاحين الرعاة وأيضاً بالمستقرين في جبل العياشي وجبال غريس وأمطغاص ووادي دادس وأعلي الحاج والممرات الجبلية وواحة تينغير بشعابها ووديانها.

وهكذا يظهر أن مولاي علي الشريف كانت قوته ونفوذه الروحي والعملي والبشري ممتداً بالجهات الجنوبية الشرقية من المغرب الممتدة على قدم الأطلس الكبير والنجد العليا. ومن شأن هذا النفوذ أن يجعل من مولاي علي الشريف قوة ممتدة في الصحراء الإفريقية. وتمتد في شامها إلى سفوح

وقمم الجبال الكبرى بالإضافة إلى جبال الأطلس الصغير التي كان امتدادها في منطقة درعة وما جاورها حيث جبال آيت ساون والمرتفعات المجاورة لذلك، حيث التوجه إلى بلاد سوس ماسة. فكان مولاي علي الشريف يعمل على بسط نفوذه وشهرته الروحية باعتباره شريفا صريح النسب ذا نفوذ معترف به يحقق الوساطة في حال ما إذا حصل نفور أو اضطراب بين القبائل على اختلاف أسمائها، فكلها كانت تعترف بشخصيته.

وهكذا صار حلف آيت يافلمان رمزا معترفا "بقوة أهل تافيلالت ووحدهم الاجتماعية والبشرية"، وكانت مهمته هي خلق التضامن الاجتماعي والتوازن القبلي والاحتفاظ عليهما في هذه المرحلة: النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد.

وحاولت هذه المجموعة البشرية أن تعيد التراتب الاجتماعي، وأشرف مولاي علي الشريف على ذلك، فكان للأمازيغ حضور قوي وصار للقبائل العربية حضور آخر، يتوازي الحضوران في قوة اجتماعية متقابلة. وفتحت بهذا التوازن قوة التواصل في اتجاه خلق مجموعات بشرية كثيرا ما يحاول بعض الكتاب أن يخلق من هاتين المجموعتين قوة متعارضة ومتضاربة معتمدا في كل ذلك الفرق ما بين سكان الجبال وسكان الوطا أي المناطق المنخفضة الرعوية<sup>41</sup>. ولكن حلف آيتي فلما حاول أن يمسك بالخلاف الذي قد يحصل بين هذه المجموعات البشرية ويحل إشكالاتها.

هذه الوضعية التي حققها مولاي علي الشريف في هذه المناطق الجغرافية يسرت له نفوذا عمل على استخدامه في تشييد المنشآت بسجلماسة وواحاطا وفي بناء قصور السكن في الواحة الفيلاية، حيث ركز على إنشاء قصور حول مقره الحبيب إليه "تغمرت"، وقد بنى بها مقر سكانه وزاويته التي يجتمع له فيها الأصحاب والأتباع والمريدون، وإن كان لم يتخذ طريقة صوفية خاصة به وإنما كان على السنة الصحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ابتغى من وراء هذه المنشآت تأسيس كيان خاص به يجمع أحبابه وأقاربه وأصهاره من العمرين المترايين والأنصارين وذوي الاعتبار من خؤولة وعمومة.

وهكذا أصبحت للشريف مكانة كبرى واستقطب وجهاء تافيلالت إليه، فأحبوه والتفؤ حوله. وقد لخص ابن دفين طيبة هذا الواقع الاجتماعي لمولاي علي الشريف بما في ذلك صور الخلاف وأشكاله مع أخيه أبي البركات مولاي عبد الرحمن وأبنائه، وأفادنا في هذا الموضوع في كتابه الجوهر الشفاف ونعتمد عليه في هذا السياق لما له من قرب زمني وصلة بأسرة الأشراف بتافيلالت على الصورة الواردة الآتية:



2- صور من المعارضة والخلاف بين مولاي علي الشريف وبعض أهل تافيلالت: "فلما توفي مولانا الحسن (بن محمد بن الحسن الداخل)... خلف فرعين اثنين مولانا عبد الرحمن المكنى بأبي البركات والولد الأبر السמידع الأشهر مولانا علي المدعو بالشريف. فخرج من دورهم بالمدينة واشترى أصلا بالمصلح وبني زاوية تسمى حارة الشريف وفيها تزايد له ولده الأكبر وهو مولانا الحسن بن علي ثم جعل زاوية قرب زاوية جنانه المعروف ببرج حمام، ثم اشترى أصولا من أولاد أبو (كذا) ربعية بتانجويت، ثم اشترى أصولا أيضا ببني مداسن، واشترى أيضا أصل علي بن موسى المداسني. فلما اشترى جنان شمال بأرض مداسن تذاكرته أهل سجلماصة، واشترى أيضا من أولاد مولود التغمري أرضا وبني فيها دارا ومسجدا وخلوة قرب فم القصر، واستسلف من أولاد مولود التمر والشعير، فاجتمع إلى أهل سجلماصة على أن يُقَوِّمُوا له جميع أصوله ويعطوه ثمنا ويخرجوه عنهم، فشاوروا في ذلك سيدي محمد بن أبي إبراهيم وابن هلال نفعا الله بهما، فقالا: أعطوه قيمة أصوله وأعطونا قيمة أصولنا معه لنخرج معه إلى حيث شاء، فإن رحمة الله لا تزول من السماء على أهل بلد طردوا ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانقلب أهل سجلماصة كاظمين، وبقي مولانا علي الشريف في أصله، وزواياه مع من له آمنين مطمئنين، فَأَغْرُوا عليه أولاد مولود من تغمري يقبضون منه تهرهم الذي استسلفه منهم قبل، وأشلوا (كذا في الأصل والمراد حرضوا) عليه المرأة طيطي المداسية تقوم بالشفعة في جنان شمال ليظهر لها في بقية الأصول وجه استغلال، وترامى الأوباش أولاد البلدي<sup>42</sup> على مواليه بالمناقشة، كما أغروا عليه أولاد مولود التغمري يقبضون منه تهرهم الذي استسلفه منهم وذلك عقب السنة ولا توجد غالبا في ذلك الوقت، فتكلم أولاد مولود مع أولاد أبي البركات يقتلونه ويأخذون أصوله لأنفسهم<sup>43</sup>. فلما اشتغل رضي الله عنه بفهم خلوته بتجويد القرآن للطلبة وتلقين الأسماء للفقراء، جعل أولاد أبي البركات يحفظون وأولاد مولود طالين التمر بمناقشة ووجه غضب. فقال أحد الطلبة الحابط الحابط، فقال مولانا علي الشريف رضي الله عنه: اللهم إن أولاد أبي البركات وأولاد مولود كما علمت ! اللهم قلل عهدهم. ثم قال: يا أولاد مولود اجمعوا الدواب واتوا تحملون تهرهم، فجاؤا بكثرة الدواب ومد الكيل، فقال رضي الله عنه: سعوا وأرادوا فضيحتنا بين الناس، فأخرج قُفَّة من التمر، ثم قال له: اجعلها تحت السجادة، فمن أوفيته حقه، فمزق برنامجي، فما زال أولاد مولود يكتالون حتى استوفوا من ذلك جميع حقوقهم، والتمر تحت السجادة لا تنقص شيئا، فساقطوا عليه ذكرانا وإنائا يطلبون منه العفو والسماحة. وأما المرأة طيطي، فقد وكل وكيلا ينوب عنه في مخاصمته معها وتحاكموا عند القاضي السيد بلقاسم قاضي المدينة<sup>44</sup>. فلم يزل يؤجل لها حتى بلغ ثلاثة وعشرين أجلا في إرجاء حجتها، فلم تأت بشيء يسمع منها شرعا، وأعجزت بعجزها القاضي، فوقع الصلح

بينها وبين وكيله على أن أبرت في شمال ولم يقبل لها فيه مقال. وأما الإسلاميون أصلاً أولاد البلدي<sup>45</sup> فقد ابتليت بلوى كل من أضر منهم من الظالمين بمواليه رضي الله عنه فطلبوا عندئذ من مولانا العفو والتجاوز عنهم والمسامحة أن يجعل لهم علامة يتميزون بها. فأمرهم رضي الله عنه أن يحملوا جريدة النخل حيثما سلكوا، فإذا رأهم العامة أو لص أو غيره خافه على نفسه من عقوبة الله بسبب دعاء مولانا علي الشريف وغضبه عليهم وبعد منهم...<sup>46</sup>.

يتضح إذن أنه يفعل غزوات مولاي علي الشريف نحو الأندلس والسودان، أنه قد بعد صيته وكثر أتباعه، إلى درجة جعلت أمير وقته السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني (حكم بين 823 و869هـ) يتخوف منه بعدما كان يحبه ويوقره، قبل دخول الوشاة من أهل فاس بينهما. فأمره السلطان بسكنى فاس لمراقبته ومراقبة تحركاته وأنشطته، فامتل مولاي علي الشريف الأمر، وسكن بحومة راس الجنان وبجزء ابن عامر<sup>47</sup>، فطاب له القرار بالمدينة، وازدحم الناس على بابه كازدحامهم على باب الملك، وتواردت عليه الوفود من سائر الجهات، فازداد خوف المريني منه، مما دعاه إلى أن يأذن له مرة أخرى بالعودة إلى سجلماسة - تافيلالت في محاولة منه لإبعاده عن العاصمة المرينية<sup>48</sup>. وتحول استقرار مولاي علي الشريف بتافيلالت إلى خلافات نشأت بينه وبين معارضيه ومنافسيه الذين أحلوا عليه في الخروج من بلدهم كما تبين في الفقرات السابقة.

3- بداية بروز وظهور أسرة العلويين السجلماسيين: إن التحول المادي لأسرة الأشراف نتيجة جهود مولاي علي الشريف واكتسابه قوة مالية بتافيلالت بشرائه للأصول والدور والعقارات والأراضي وبناءه للقصور وخاصة بمنطقة وادي إيفلي وما جاوره، كل ذلك أثار الخلاف بينه وبين بعض ساكنة الإقليم وتطلب الموقف ذات البين مع الأهالي.

هذا الانتقال السريع لأسرة الشرفاء الحسنيين السجلماسيين من القوة الدينية - الروحية أي من "التبرك" إلى "التمركز والنفوذ" بامتلاك الأسس المادية اللازمة لأي تحرك لبروز قوة مستقبلية في الإقليم، هو الذي أفرز مواقف متباينة لأهالي تافيلالت بين رغبتهم في إخراجه منها بعد تقويم أصوله أو محاولة الاعتداء عليه واغتياله، وبين موقف الفقهاء سيدي محمد بن إبراهيم وأبي إسحاق إبراهيم بن هلال السجلماسي اللذين انحازا إلى صف مولاي علي الشريف أبي المغازي.

لم يسفر هذا الخلاف عن نتيجة مؤدية لمولاي علي الشريف وإنما أسفر في النهاية عن تقوية حضوره في سجلماسة - تافيلالت وإحاطته بنوع من الإجلال والإكرام وتعزيز مكانته بالمنطقة، مما جعل ملوك فاس من المرينيين والوطاسيين يحترمونه ويفوضون له الأمر لتصرف شؤون المنطقة وترتيب العلاقة بين سجلماسة تافيلالت وفاس، وبينها وبين أهل السودان وكذلك بلاد الصحراء وشنقيط، مما

أعطى لمولاي علي الشريف دعماً وتفويضاً في ترتيب "ركب الحج السجلماسي"، فكان له نفوذ في الجنوب الشرقي من المغرب وفي امتدادات أقاليمه إلى بلاد السودان الشيء الذي أحيى وأنعش الحركة التجارية وحركة التداول والاتصال بين المغرب الأقصى وبلاد إفريقيا جنوب الصحراء.

4- الحياة اليومية وتأسيس المراكز العلمية: نبدأ في هذا السياق بمقولة المؤرخ أبي القاسم الزياني التي وصف فيها مولاي علي الشريف بالرجل الذي استبدل الملك بالعلم وخص به ذريته وعقبه في المغرب وفي ذلك يقول: "من عظم العلم، واكتفى به عن الملك"<sup>49</sup>. انتشرت مراكز العلم في تافيلالت في القصور التي توزعت في الواحة الفيلاية وحوض وادي زيز وغريس وما والاها متمسكة بتوجيهات مولاي علي الشريف وبمساعده ودعمه المادي والعلمي والروحي - الديني، وبذلك نشأت في وسط ازدهرت فيه حركة المعرفة الدينية القرآنية، حيث اهتمت تلك المداشر والقصبات التي أقامها مولاي علي الشريف بتعليم القرآن وتحفيظه وبدراسة المؤلفات الفقهية التي كانت تدرس في فاس بالقرويين وتجلب بتوجيه من مولاي علي الشريف إلى تافيلالت وقصورها على قاعدة أهل العصر الذين كانوا يشرحون مؤلفات العلماء السابقين في كراسي علمهم، وكان يسهل المأمورية للطلبة لينتقلوا إلى فاس لزيادة المعرفة والعودة بها إلى تافيلالت، فكانوا يتوجهون إليها بالخصوص وإلى مراكش وكذلك إلى مراكز الزوايا خارج تافيلالت ليدرسوا ويستزيدوا من المعارف الدينية والفقهية بوجه خاص، فنشأ في هذا الجو وسط متحرك للمعرفة الدينية وصارت تافيلالت خلية تجمع قراءة القرآن وتجويده والكتابة في الموضوع، وبذلك ألفوا في هذا الميدان على نسق السابقين، ولكن هذا "العصر الشريف" تميز بحقيقة جديدة وهي توظيف وترتيب النفقات على طلبة العلم وحفاظ القرآن ودارسي العلوم الدينية بجميع فروعها وتشعباتها.

وهكذا أصبح عهد مولاي علي الشريف عهداً حياً استجاب له كبار شيوخ المنطقة الفيلاية، مما عزز الصلات بين علماء تافيلالت وعلماء فاس القرويين ومراكش اليوسفية، فصارت مركزية تافيلالت مركزية لحفظ القرآن وجمع السنة وحفظ الأحاديث النبوية الشريفة، فاستقطبت كل من يهتم بهذا الميدان ويتجه إلى جهات الأمان ونشر العلم والمعرفة، وهي المناطق الصحراوية المغربية وإفريقيا جنوب الصحراء، فكانت رحلة مولاي علي الشريف إلى بلاد السودان وإلى جهات المشرق، وكذلك إلى الجهاد بالأندلس والاتصال بمن تبقى من علمائها، كان كل ذلك مجالا حيوا لخلق جو جديد استفاد منه مولاي علي الشريف، فكانت حركته من أجل الإسلام عموماً دفاعاً ومعرفةً وصلاًحاً.

هذه هي الأسس الأولى لشخصية مولاي علي الشريف في تافيلالت، فقد وصل إلى مستوى من النضج والإبداع ليكون رمزا لقيادة جديدة في المجتمع السجلماسي القبلي بالتعاون مع علماء المنطقة وخاصة الأسرة الإبراهيمية حفدة أبي إبراهيم العمري الهلالي.

أدى هذا الوضع إلى تمركز الحياة المعرفية إلى جانب النشاط التجاري مع إفريقيا جنوب الصحراء، فاتصلت المنطقة وتواصلت بما لا يتأتى تفصيله هنا، وإنما تقتصر على إجمال الصورة العامة للمنطقة. وقد بدأ مولاي علي الشريف حركته العلمية يوم كان مقيما بفاس حيث درس المبادئ الأولية للعربية بتلقيه للأجرومية وشرحها كما درس البلاغة العربية وخاصة علم البيان، وكان مُجيدا بحيث لفت نشاطه في هذا العلم نظر طلابه ونسبت إليه أصول المؤلفات المتخصصة في علم البيان والبلاغة، وخاصة مؤلفات الزمخشري والجرجاني وسواهما من علماء اللغة العربية، ولكن لم يصلنا ما أملاه على طلابه، بحيث غابت نصوص بحوثه في أدبار الزمان، وما غاب في الخزائن الخاصة بتافيلالت، وكانت زاويته مركزا لتلقي الطلاب مبادئ العربية وعلوم الدين، مما خلق من زاويته محطة للعلم والمعرفة الإنسانية في المناطق التي ركز فيها إقامته، وامتدت فيها المراكز ومحطات المعرفة فيها<sup>50</sup>.

وقد أشاد بعلم مولاي علي الشريف كتب الأنساب والتراجم ووصفه الزكي العلوي في مطالع الزهراء بأنه: "دار علم وصلاح وعفاف وفلاح مشهورة بالعلم والولاية، وكان معروفا برياسة الدنيا، رأسا في العلم والدراية، ملحوظا بعين الرضا والإجلال والتعظيم عند الأمراء والكبراء، محبا للمساكين والفقراء"<sup>51</sup>. وقد تصدى كذلك لـ: لإطعام الطعام، وإقراء الضيوف، وقراءة القرآن، وتلقي الأوراد<sup>52</sup> بفم خلوته قرب فم القصر بتغمرت<sup>53</sup>، حتى اشتهرت بلدته بالزاوية، وحبس على كل ذلك أحباسا وأوقافا كثيرة<sup>54</sup> في سبيل تلقي العلم للطلبة سواء من أبناء البلد أو الوافدين من مناطق مختلفة، فكثر بذلك طلاب العلم، وتنافسوا عليه<sup>55</sup>. وعند وفاته عام 847هـ/1443م<sup>56</sup>، صار ضريحه ملجأ لطلاب العلم "يقراون الحزب ودلائل الخيرات، وعلوم أخرى"<sup>57</sup>، والجدير بالإشارة أن قراءة دلائل الخيرات قد تكون بدأت متأخرة عن وفاة مولاي علي الشريف وتستمر إلى الآن.

5- الصلات والروابط بين تافيلالت - سجلماسة وفاس والأندلس: يحكم هذا الموضوع ما ساد من جو عام في عصر مولاي علي الشريف وهو النصف الأول بالخصوص من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهذا الجو السياسي كان واقعا مرا بالنسبة لأواخر الدولة المرينية وكان صعبا ومضطربا للمغرب كله، حيث ضعفت الدولة في فاس وعاشت أزمتا قاسية في عهد عبد الحق المريني الذي كان آخر ملوك بني مرين وانفرط فيه عقد القبائل المغربية، فانخلت عرى الروابط التي كانت تتحكم في وثائق النظام القبلي، فامتازت المرحلة بالقلق شديد، وصارت الأحزاب تعقد تارة، وتنحل

أخرى وكان مجال ذلك هو المناطق الجبلية والسهوب والجهات التي كانت تتأثر بالعوامل الطبيعية من جذب وجفاف، فالأزمة القبلية تأثرت بالوضع الذي ساد مجتمع الرعاة والفلاحين بوجه خاص، وكان المؤشر الذي يدل على هذا هو ضعف الجباية وندرة مداخيل الدولة الشيء الذي خلق واقعا انقساميا بالمعنى الأنثروبولوجي، وخلق نظاما للنفوذ القبلي متمائزا بين واقع الجهات الوسطى من المغرب وحقيقة المجال القبلي في الأطلس المتوسط الذي عرف تحركا قبليا انتقاليا، مما جعل الدولة تتأثر بهذا القلق الاجتماعي اقتصاديا وديموغرافيا، وأدى هذا إلى أن الدولة لم تعد تتحكم في أغلب مجال نفوذها سابقا، مما جعل جو الاضطراب والانعزال الاجتماعي والفوضى القبلية هي ميزة هذه المرحلة، سادت فيه التوثرات القبلية والسيطرة الروحية لمشايخ التصوف وأصحاب المذاهب ذات البعد الديني الشيعي، مما خلق موجة جديدة من "الإمارات المستقلة" أوجدتها ظروف اجتماعية خلقتها الزوايا والتصوف في هذه المرحلة، فنشأت إمارات متميزة خاضعة لشيخ الزاوية أو شيخ القبيلة، وهكذا أصبح التحكم في السياسة داخل المجتمع المغربي مرتبطا بحقيقة القبلية وحقيقة الاتجاه الصوفي والزاوية. فهناك توافق وتعارض في نفس الوقت، فهل استفاد مولاي علي الشريف من هذا الجو المشحون وغير المتجانس داخل المنطقة التي تحرك فيها بين سجلماسة - تافيلالت والعاصمة فاس باعتباره شريفا وشيخا روحيا دينيا؟

هذا السؤال يثير إشكالين رئيسيين في عصر مولاي علي الشريف الممتد من أواخر القرن الثامن للهجرة إلى منتصف القرن التاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، وهما أزمة الحكم وثورة الأدارسة بفاس<sup>58</sup>، وذلك يثير ثلاث قضايا أساسية:

أولا: أزمة الحكم والأسرة المرينية الأخيرة.

ثانيا: مسألة الأزمات السياسية الداخلية التي واكبت هذه المرحلة في المدن والبادي.

ثالثا: مسألة الدفاع عن الإسلام في الأندلس والجهاد فيه من أجل نصرته الإسلام والدولة الإسلامية في غرناطة وما إليها من الجهات المستهدفة من قبل الغزو النصراني المسيحي في الأندلس، ويرتبط بهذه القضية مسألة نقل الحرب من شبه جزيرة إيبيريا إلى المغرب الأقصى خصوصا وأن طمع نصارى الأندلس من برتغال وإسبان كان موجها نحو المغرب والسيطرة على مضيق جبل طارق وغرب البحر الأبيض المتوسط عموما والتحكم في الملاحة البحرية في المحيط الأطلسي وشواطئ إفريقيا الغربية.

هذه القضايا كانت مشكلتها قوية وتثير في دولة الإسلام بالمغرب تحركا لتنظيم الجهاد، وقد سبق وأن عالجنا هذه النقاط الثلاث في كثير من جوانبها، ولكن بقي علينا أن نثير حقيقة واقعية في أواخر عصر بني مرين، وهي حقيقة أزمة العرش والحكم، حيث ابتداء من أبي عنان إلى نهاية عصر عبد الحق

بن أبي سعيد المريني انتاب الدولة خلل في نظام الحكم، وهو ما جعل المؤرخين والكتاب الذين عاصروا هذه المرحلة يطلقون على واقع النظام والحكم بعصر التقلب والاضطراب وتولية الصبيان أو من بلغ مرحلة الاحتلام بالكاد، وفي ذلك كان لسان الدين بن الخطيب يؤلف كتابه "أعمال الأعلام" و"رقم الحلل"<sup>59</sup> وقد خصصهما لهذه الأزمة التي انتشرت في الدولة المرينية. إلا أن مولاي علي الشريف لم يربط علاقته مع هذا الواقع المتقلب، وإنما كان موقفه مسالما وغير معارض خصوصا لعبد الحق بن أبي سعيد، فقد بايعه والتزم ببيعته إلى أن عاجلته المنية في أواسط عصر عبد الحق سنة 847هـ/1443م.

رغم أن مولاي علي الشريف كان ذا شأن، فإنه لم يتحرك للدعوة إلى حكم المغرب، بحيث لم ينصب نفسه مسؤولا سياسيا في تافيلالت وسجلماسة، فقد اعترف بالقاضي الذي والاه السلطان المريني وكذلك اعترف بالعامل الذي ولاه بنو مرين على تافيلالت - سجلماسة. وهكذا كان غرضه هو بسط نفوذه الروحي وتأكيد خاصية الشرف التي امتاز بوصفه بها لما لها من تأثير في حياة المجتمع المغربي، فهو رعيده الذي كونه خلال حياته الطويلة. وقد لفت نظره ما كان يحدث شمال المغرب من هجومات نصرانية مسيحية، فاهتم بالدفاع عن الوطن المغرب، فإذا كان "وطنيا قبل أن يكون طالب سلطة". وهكذا ربي في المغاربة روح الدفاع عن الوطن والدين، فاشتهر بهذا الطابع والتوجه داخل الدولة المغربية.

إذن كان مولاي علي الشريف رجلا ذا أفق بعيد يعمل نصرة الحقيقة الكبرى وهي جمع شمل الدولة المغربية ومناصرة رجالها المخلصين الصادقين، واعتبر في كل ذلك شرعية ملوك الدولة المرينية رغم ما أصابها من خلل وضعف، وقد شهدت بذلك كتابات المؤرخين الذين عاصروه أو جاؤوا بعده، بحيث رغم ما حاول خصومه إثارتة بينه وبين عبد الحق سلطان بني مرين الأخير، فقد حاولوا الإفساد بينه وبين السلطان ولكنه ثبت على موقفه، وتبين لعبد الحق المريني صدق مولاي علي الشريف، ورد كيد أعدائه في نحورهم وهذا ما أشارت إليه كتب الأنساب ونخص بالذكر ما دونه كل من ابن دفين طيبة<sup>60</sup>، والفضيلي<sup>61</sup>، والمقري<sup>62</sup>، وعبد الكريم الريفي<sup>63</sup>، والزكي العلوي<sup>64</sup>، والناصري<sup>65</sup>، ورواية مطالع الزهراء هي المفصلة والمعتمدة لدينا وهي كما يلي: "وبقي رضي الله عنه يتردد بين جزيرة الأندلس وبلاد السودان وبذلك بقصد إعلاء كلمة الله، هذا دأبه هو وأهل سجلماسة وقبائل السوس الأقصى وصنهاجة الأحرار حتى تخوف منه سلطان وقته الإمام عبد الحق بن أبي سعيد المريني، وكان هذا السلطان يحبه محبة قبل دخول الوشاة من أهل فاس بينه وبينه، فلما تمكن كلام الوشاة من قلب السلطان المذكور أمر مولانا علي الشريف بالسكنى بفاس، فامتثل أمره وسكن بها بحومة رأس الجنان، بجزء ابن عامر وداره معروفة هناك، نحو اثني عشرة سنة، فطلب رضي الله عنه من السلطان الرجوع

لبلاده سجماسة، فأذن له في الرجوع إليها على أن يرجع لفاس، فلما خرج من فاس بنية السفر لسجماسة دخل بعض الوشاة من أهل فاس على السلطان، وقال له إن الرجل الذي طلب منك السفر لبلاده وأمرته بذلك ليس الأمر كما ظننت أو كما قال، وإنما نيته الخروج عليك وعن طاعتك، فتراه أبدل السكة، وقد تكلم مع فلان وفلان من أهل فاس ومع قبائل العرب والبربر، وكان لهذا السلطان رجل صالح يجالسه ولا يفارقه في غالب أوقاته ويشاوره في جميع أموره، وكان هذا الرجل الصالح ينهاه عن مجالسة أهل فاس، سيما العوام منهم، فجاءه يوما فوجد البعض من أهل فاس عنده، وهو اليوم الذي سافر فيه مولاي علي الشريف لبلاده، فغضب الرجل الصالح وهجر السلطان أياما متواليات، فأرسل وراءه السلطان، فأبى أن يدخل عليه، فبقي السلطان يستعطفه إلى أن أجابه بالدخول عليه، فلما دخل الرجل الصالح على السلطان فرح به وسر بدخوله عليه وقام إليه إجلالا، فقال له الرجل الصالح: لا أكلمك يا أمير المؤمنين حتى تصدقني بما حدثك به فلان، فأخبره السلطان بما قال له، فقال له الرجل الصالح: إن أهل فاس لا يامرونك إلا بالسوء لأنهم أهل غش وخديعة ولا يحدثونك إلا بالكذب، فصدقه السلطان، وقال له: ياسيدي أخبروني أن مولاي علي الشريف أبدل السكة وأراد الخروج عن طاعتي، فلو أرسلت بعده وأثقلته بالحديد وخلوته في المهجر لكان أولى لك قبل أن يراحمك في ملكك وملك أبيك وجدك، وها أنا بعثت وراءه نحو الخمسين فارسا، والآن تبت الله ولا أعود أسمع كلام أحد فيه إلا بخير، فقال له الرجل الصالح: قد علمت ذلك، فلما لحقوه، لحقوا الخمسين فارسا، بمولانا في أثناء الطريق وأخبروه بأمر السلطان، فأجابهم بالسمع والطاعة لأمر المؤمنين، رجع مولانا علي الشريف معهم إلى أن وصل إلى حضرة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني، فوجده قد ندم على ما فعل، وقام السلطان إجلالا لمولاي علي الشريف وقبله وعظمه، وقال: يا سيدي وابن سيدي اسمح لنا، فأنتم أهل الجود والوفى لأنك من سلالة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فأجابه مولانا علي الشريف بقوله: والله الذي لا إله إلا هو لا أرضى بمملكتك لو صيفي هذا خنوس، والوصيف في ذلك الوقت حاضرا معه في بساط الملك، فلما استقر المجلس بين السلطان وبين مولانا علي الشريف دخل عليهما الرجل الصالح فطال بينهم الكلام، فمن جملة ما قاله الرجل الصالح: يا أمير المؤمنين ألم أقل لك إن أهل فاس أهل غش وخديعة للملوك، وأن هذا الشريف عليه نور النبوة، والخلافة لاشك في عقبه من بعده، كأني أنظر إليهم في مؤنتك هذه وهو لا يلحقك منه ضرر لا الملوك من أبنائك ولا الدولة التي من بعد دولتكم، وملك المغرب في عقبه يطول، وهذا الرجل الصالح على الواو (كذا) حتى غشي عليه، فلما أفاق من حاله، قال للسلطان: الأمر لله الملك لله، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده،

والعاقبة للمتقين، فبكى السلطان بكاء شديدا وطلب منهما العفو، ثم أمر السلطان مولانا علي الشريف بالرجوع إلى جزيرة الأندلس برسم الجهاد، فامتثل رضي الله عنه الأمر...<sup>66</sup>.

7- مولاي علي الشريف وسلاطين بني مرين المتأخرين: عاصر مولاي علي الشريف الملوك الأواخر من الدولة المرينية وحاول أن يكون متعايشا مع أسرة الحكم مما يثبت أن هذا الشريف لم يعمل على انتزاع الحكم ولا تدبير قيام دولة شريفة رغم أن نزعة الشرف في الدولة المرينية لقيت دعما وتقديرا واحتراما، ورغم أن الظروف التي كانت تحيط بالدولة المرينية قهت المجال لهذا النوع من الزعامات الجديدة التي كانت تنتشر بحكم الولاء الصوفي ودعم العناصر التي لها ارتباط بآل البيت والإعداد لقيام إمارات مستقلة دفعتها إلى ظهور عوامل جديدة وهي الجهاد في الأندلس ومناطق المغرب الشمالية التي كانت تحت تهديد النصارى بحكم السيطرة المسيحية على مضيق جبل طارق، فكانت سبتة وطنجة مطعما لكل من البرتغاليين والإسبان، ولذلك نجد مولاي علي الشريف اتخذ من هذه العناصر منطا لقوته وكيان جماعته الذين كانوا تحت أنظاره في كل من سبلماسة- تافيلالت وفي فاس كذلك وشمال المغرب، واستفاد عمليا من الاحترام المريني للأشراف، وقد سبق أن اتخذ من حركة التطوع للجهاد في الأندلس خلال أوائل حكم عبد الحق المريني، وإن كان عامل سبتة وسقوطها في يد البرتغاليين قبل ذلك، محركا للمغاربة جميعا، وأدى ذلك إلى تنظيم حركة الدفاع والجهاد، فقام مولاي علي الشريف بجهد كبير لجمع المتطوعين، فكان شيخا للغزاة المجاهدين في الشواطئ المغربية والأندلسية التي استشرى فيها نفوذ الإسبانيين الذين نظموا حملاتهم ضد المغرب وشواطئه. لكن الفترة التي ظهر فيها هذا الوضع قائما أعطت طابعا جديدا لموقف السلطان المريني من جميع الزعماء الذين كانوا يترأسون حرب الجهاد وحرب تحرير الجهات المحتلة من النصارى وأتباعهم، وكان الجو العام الذي يسود المغرب هو انفراط الأمن وفوضى القبائل، فصارت المدن في الداخل تحت رحمة الفتن والاضطرابات، ولم يعد السلطان متحكما ولا مسيطرا على خارج المدن، وبالأخص العاصمة فاس.

إن الدولة المرينية لم يبق لها جيش منظم يحميها، فتسرب الشك إلى قادة التسيير في المجتمع، بحيث أصبح كل من له نفوذ واعتبار في الوسط المجتمعي عنصرا مشبوها، ولم يستطع السلطان المريني أن يرم أمرا يحل المشاكل الداخلية، وهذه هي وضعية مجتمع الدولة في عصر عبد الحق المريني، وخاصة بعد سقوط سبتة سنة 818هـ / 1415م.

وعندما عاد مولاي علي الشريف من إحدى حملاته في الأندلس تشكك رجال السلطان في أمره وبدأت الوشاية بالشريف ليحذر السلطان من خطورته والقيام عليه وانتزاع البيعة. وهذا زعم لم يجد



قبولا في البلاط المريني، كما تبين في الفقرات السابقة، حيث كان يتضمن رجالا صالحين ومستشارين يحاولون أن يعطوا لموقف مولاي علي الشريف "حقيقته السياسية".

ومع ذلك نجح الوشاة في خلق نوع من القلق في نفس السلطان عبد الحق المريني الذي استدعى مولاي علي الشريف ليستبين الأمر ويعرف حقيقة الأمور، وهذا الواقع أعطته كتب الأنساب صورة لتبرئة مولاي علي الشريف وتكليفه بشؤون الوسط القلق في المجتمع وتصفية ما كان يحيط بالسلطان من مؤامرات في نفس الوقت، وتكاد كتب الأنساب تنفرد بتحديد قضيتين في الموضوع:

أولها: تدخل الرجال الخالص والأصفياء الذين كانوا يعملون وسطاء بين مولاي علي الشريف وبين السلطان والذين لهم تحرك ضد سلطة بني مرين. وهذا ما ذكره المؤرخون باسم الرجال الصالحين. الثاني: هو الوسط الفاسي<sup>67</sup> وموقف أهل المدينة من كل العناصر الذين يتقربون إلى السلطان، فقد صورت هذه النصوص<sup>68</sup> أهل فاس تصويرا يبين خداعهم للسلطان وتقلب مواقفهم منه وحتى من كل مترعم يروونه قريبا من السلطان المريني أو يتقرب منه بأي صورة من الصور. فكانت هذه الصورة التي لها طابع أخلاقي ووشاية تمردية تعمل على التشكيك في نية مولاي علي الشريف.

هذا الواقع حاول فيه مولاي علي الشريف أن يكون أمينا ومخلصا للسلطان المريني، ولكن الإصرار الذي عومل به جعل المستشارين يلحون على تصفية الخواطر والجو لتبرئة مولاي علي الشريف، فكانت الوقت التي قضاهها بفاس إلى جانب السلطان كافية لكي تبرئ ذمته وهي اثنا عشر سنة عاشها بداره بجزء ابن عامر بفاس<sup>69</sup> وكأنها إقامة إجبارية فرضت عليه، حيث حاول بعد ذلك الانتقال من فاس إلى سبلماسة - تافيلالت، فاستوثق منه عبد الحق المريني وأذن له بالخروج من فاس إلى مهد أسرته بتافيلالت.

ومع ذلك لم يترك مولاي علي الشريف وشأنه الذي كان برينا من تبني أي موقف سياسي ضد عبد الحق المريني، فانتقل إلى صفرو وأقام بها مدة قصيرة، واتخذ من زاوية بها مكانا ليحتضن به أسرته، ويظهر أنه اتصل بالقبائل المحيطة بصفرو وخاصة قبائل "آي يوسي" وما جاورهم مثل مديونة وفندلاوة وآيت سغروش الذين كان انتشارهم قويا على امتداد الطريق الرابط بين فاس وسبلماسة، فكان انتشارهم يمتد إلى المضائق التي تصل بين صفرو والتجبل وواد كيكو، فهم الذين تعهدوه ورعوه في حلة وترحاله، ولعل مولاي علي الشريف عقد اتفاقا بينه وبين آي تيوسي في الأطلس المتوسط الشيء الذي جعل حركته آمنة ووجدوه قائما في هذه الجهات، وكان أهل فاس يعلمون هذا النفوذ القبلي عند مولاي علي الشريف، فقاموا بوشاية إلى السلطان يتهمون فيه بالتحرك ضده، ومع ذلك لم ينالوا منه شيئا، مما أدى بالسلطان لاستدعائه إلى فاس من جديد، فشرح للسلطان ما كان من أمره وأخذ

عليه العهود والمواثيق، وهكذا خلال إقامته في صفرو اطمأن عبد الحق إلى مولاي علي الشريف ولم يقيم ضده بعمل يؤذيه، مما جعل الأمور تسير لصالح مولاي علي الشريف وتدفعه إلى أن ينتقل من صفرو عبر طريق التمر المعروفة إلى موطنه الأصلي تافيلالت، وأخذ يستقر في الأماكن الحساسة في الطريق مثل جرسولين قرب وادي زيز، فأقام بها مدة يتصل بمن كان يتعهد الطريق من رجال القوافل التي كانت تعبرها، فكان في هذه الخطات مقرات للإقامة والاستراحة (الزلات) وضمن سلامة الطريق لقوافل التجارة بين فاس وسجلماسة، وهي آخر محطة مولاي علي الشريف، حيث استقر نهائياً في تغمرت أحد قصور سجلماسة والتي كانت مركزاً لزاويته وإقامته التي وافاه الأجل المحتوم فيها سنة 847هـ / 1443م، ولم يُد أي رغبة في القيام بأي تحرك ضد السلطان المريني، حيث هبّ الجو العام لإقامة الأسرة "العلوية الفيلالية - السجلماسية" التي صارت فعلاً أسرة ذات نفوذ في المنطقة وفي الطريق الواصل إلى فاس.

وهكذا كان مولاي علي الشريف مؤسساً لهذه الأسرة وللمجتمع القبائل المغربية والأحلاف الكبرى وخاصة "حلف آيت يافلمان" الخيطة بطريق التجارة وركب الحجيج<sup>70</sup>.

اختل التوازن في هذا العصر لصالح دول شمال البحر المتوسط، وتولى الانحطاط والضعف ببلاد المغرب الكبير وأصبح يغذي نفسه بنفسه ويخلق ظروف استدامته واستشرائه: تحكم البدو في الجيش ثم في الدولة فتكون نظام قبائل الجيش من العرب والبربر في مجتمع دولة المغرب الأقصى بالخصوص، وتناقصت الجبايات، وانكمش الإنتاج، وضمزت الصنائع، واشتد التنافس على السلطة، وتعطلت المواصلات، وخربت الأمصار، وضعفت الثقافة... فساد الانحطاط الحضاري للمجتمع المغربي<sup>71</sup>، وانحلت الدولة وتفتت المجتمع، فاستقلت كل فئة اجتماعية عن الأخرى، وفقدت بالتالي غطاءها الشرعي. وفي مثل هذه الحالة من تفكك المجتمع، حيث تبدو مكوناته عارية منكشفة منفصلة<sup>72</sup>.

ولم تستطع الدولة المرينية توقيف عملية التمزق فيها، بل استفحلت هذه العملية أثناء العقود الأخيرة من القرن الثامن للهجرة وبداية التاسع / الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، بسبب تأثير عاملين اثنين:

الأول: الدور القيادي الذي أصبح يقوم به الوزراء العائد إلى قوة عصبيتهم القبلية وإلى الإقطاعات التي تراكمت لديهم عبر السنين.

الثاني: هو استمرار المكائد والمناورات التي كان يحكيها الأمراء الزيانيون البنوعبد الواديون التلمسانيون وبنو الأحمر النصريون والإسبان ضد المغرب<sup>73</sup>.

ويسبب ضعف المتولين من السلاطين الذين لم تكن لهم خبرة في القيادة والسلطنة بالإضافة إلى ما كان يحيط بالاجتماع من عناصر الاقتصاد المبني على المعاش، فكل ذلك جعل سلطة الدولة تنحصر في أهم المدن وخاصة مدينة فاس ومراكش، بحيث كانت المدن البعيدة عن المركز فاس غير قادرة على تمثيل الدولة ويسط كلمتها ونفوذها حتى في الجهات القريبة، فأصبح الفساد منتشرًا وضعف التسيير قائما، ويصور لنا هذا الوضع المؤرخون الذين عاصروا مرحلة عبد الحق المريني، فكانوا يتكلمون على المرحلة التي جئت بعد أبي عنان المريني (نهاية القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع للهجرة) بطريقة لا تخفي ما كان يسود في الدولة من فساد وخروج عن سياق سلطة الحاكم المتمسك بشؤون الدولة.

هذا الوضع جعل مشايخ القبائل يتحولون إلى شبه أمراء أقوياء في مجال انتشار قبائلهم وخاصة في الأماكن المعزولة. فكانت القبائل الكبرى في الأطلس الكبير والأطلس المتوسط تغير أحيانا على تلك المدن وتجعل منها جهات فيما يعرف في المجتمع المغربي الوسيط بالجهات التي لا تناهأ أحكام السلطان، وظهر وسط اجتماعي يعرف بـ "مجتمع السبية" ولم يبق تحت سلطة المريني سوى المدينة المركز فاس، وأصبح التواصل مع رعايا السلطان صورة شكلية لا يتحقق فيها نفوذ الدولة بمعنى الكلمة.

وقد تحرك مولاي علي الشريف في النصف الأول من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد تحركا أعطاه في مجال "طريق التمر" سجلماسة - فاس مكانة قوية ونفوذًا يربطه ويقويه في "القبائل النافذة" في مجال الربط بين فاس وسجلماسة بحيث صار ذا سمعة وأمر مقبول لدى القبائل يستخدم في كل ذلك نفوذه الذي اكتسبه بالأحلاف والاتفاقيات التي عقدها مع حلف آيت يافلمان وما كان في ركابه من قبائل تتحرك في مجال المغرب الشرقي والجهات الجبلية المحيطة بذلك.

"صار مولاي علي الشريف شيخ التجمع القبلي العربي - الأمازيغي" في كل من حوض ملوية وامتداداته الجغرافية والبشرية داخل التخوم الشرقية في المغرب الشرقي. وهكذا تمكن من ربط الاتصال والتواصل بين القبائل العربية العقلية وحتى من كان معها من قبائل هلالية والقبائل الأمازيغية ذات الأصل الزناتي خصوصا ومن تحالف معهم من قبائل صنهاجة. وأمسى مولاي علي الشريف يتهيا لربط الصلة بين سجلماسة وأقاليم توات والطريق الرابطة بين هذه الجهات والصحراء الإفريقية الكبرى. يعني هذا أن مولاي علي الشريف أصبح قوة روحية وبشرية في "مجال قبائل المغرب الصحراوي".

هذا الوضع أكسب المغرب تمكنا في التواصل بين تخوم الصحراء الكبرى ومركز الدولة مدينة فاس وكذلك مدينة تلمسان وما والاها، فصارت المنطقة الشرقية من حوض ملوية مجالا حيويا لإنعاش السلطة أو تدميرها، فكل من سيطر في هذا المجال من أي تجمع قبلي كان ذا نفوذ وسلطة معترف به،

ومن تخلى عن ربط التواصل وتمكينه لم يعد له شأن يذكر، فالقوي أصبحت له التبعية والضعيف لم يعد شيئا مذكورا. وهذا هو الوضع الذي تحقق في آخر الدولة المرينية وخاصة في عهد السلطان عبد الحق المريني.

الذي يظهر من خلال المصادر أن مولاي علي الشريف أصبح متمكنا وله قوة مهابة ولا يمكن توقيفه بأي صورة من الصور، وكان الاختبار بزيادة التمكين وبسط نفوذه في مدينة سجلماسة ومجائها. ولذلك اختار أن يعيش أواخر عمره في المدينة التاريخية وما يحيط بها من مجال يحقق له الظهور والتميز في المكان الذي سيعيد له اعتباره ويحيي مجد المدينة وإن تغير الوضع عما كان عليه قبل، فاختص مولاي علي الشريف في الفترة الأخيرة من حياته أي بعد سنة 842هـ/1438م بالإقامة في القصور بقصر زاوية تغمرت بضاحية مدينة سجلماسة القديمة تحديدا.

وقد أجمل الأستاذ عبد الله العروي الصورة العامة لهذه الوضعية المضطربة في كتابه "مجل تاريخ المغرب"<sup>75</sup>. ولعل ما يميز ذلك العهد هو تدهور الوضع العام في بلاد المغرب الكبير وتساعد الهجمة الإيبيرية، سواهما حدثان مرتبطان بالطبع. مر كل منهما بمرحلتين اثنتين: شهدت الأولى تفسخ دولة بني مرين وتصدر البرتغاليين حركة التوسع الإيبيري. أما الثانية فإنها عرفت انحطاط سائر البلاد وبسط سلطان الإسبان على المنطقة كلها.

#### الهوامش:

- 1- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، 205.
- 2- ابن خلدون، العبر، ج7، ص323.
- 3- الذي يعتمد في المصادر أن بداية تدهور مدينة سجلماسة وتخريبها كان حوالي سنة 764هـ/1363م واستمرت الضربات تتلاحق في المدينة، فمنها حصار ملوك بني مرين لسجلماسة المدينة وضربها بالسلاح الناري في كل من 772 و 783 و 785هـ إلى أن هجرها سكانها وانتقلوا إلى خارج أسوار المدينة القديمة ينشئون المداشر والقصور في حوض نمري زيز وغريس وولد إيفلي وبذلك انتهت المدينة التاريخية المسورة سجلماسة وأصبحت قصورا يمكن أن نطلق عليها من هذا التاريخ اسم "تافياللت"، وبذلك بدأ نمط جديد في عمران المدينة.
- 4- Gdinho M, L'économie de l'empire portugais aux XV et XVI siècles, Paris, Sevpén, p106. Villar P, Or et Monnaie dans l'histoire, Paris, Flammarion, 1974, pp44-45. Meunié DJ., le Maroc Saharien des origines à 1670, Paris, p213.
- 5- حسن علوي حافطي، سجلماسة وإقليمها، ص440.
- 6- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص126.
- 7- حسن علوي حافطي، سجلماسة وإقليمها، ص440.
- 8- تنطق عند أهل فاس "كزام ابن عامر" وهو أحد الأذقة المشهورة بعدوة القرويين القريب حاليا من زاوية سيدي عبد القادر الفاسي بالقنقلين ويتندى من عقبة القيوان إلى الممر الموصل إلى رحبة التبن، ولا يزال يعرف حاليا بذلك.
- 9- حكى لنا الأستاذ العميد عبد الوهاب التازي، أن سر ملكية هذه الدار يعتبر من الرسوم العدلية التي تعاقبت فيها ملكية شراء هذه الدار المباركة، ويغلب على الظن أن هذا الرسم محفوظ بنظارة أحباس القرويين بفاس.
- 10- حسن علوي حافطي، سجلماسة وإقليمها، ص440-136.
- Rosenberger B., Tamdult, pp137. Rosenberger, Exploitation minière, 2ème partie, p92. Dévisse. « Routes de commerce et échanges en afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle » Journal de la Société des africanistes, Année 1973, Volume 43, Numéro 2, pp.271-272.

- 11- ف. هايد - تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994. (في أربعة أجزاء).
- 12- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، الترجمة العربية، ابن بطوطة، تحفة النظار. مع ملاحظة أن ابن بطوطة كان مقدما على هذه المرحلة بقليل.
- 13- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، وانظر تفصيل ذلك في ترجمته لمولاي علي الشريف الفضلي، الدرر البهية، ج1، ترجمة مولاي علي الشريف.
- 14- وهو نص مهم في تاريخ هذه الفترة يفك مجموعة من الطلاسم في علاقات شرق إفريقيا بغربها، وقد أفادنا به الأستاذ المحترم رئيس جامعة الخرطوم سابقا يوسف فضل أمد الله في عمره.
- 15- محموج بن محمد، الاجتماع البيضاوي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001، صص 238، 199.
- 16- UNESCO, histoire générale de l'Afrique, T4, édition 2004.
- 17- انظر: ف. هايد - تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994. (في أربعة أجزاء). أمين مصطفى عفيفي، أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ أوروبا الاقتصادي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1954، صص 159، 99. وراجع تفاصيل الطرق التجارية البحرية في الكتاب نفسه، ص193. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، صص 12، 5.
- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، القسم الخاص ببني وطاس وبداية السعديين.
- Rosenberger, Le Maroc au XVI siècle, p44. Jacques Meunié, Le Maroc Saharien, T2, pp571,573. Terrasse, Histoire du Maroc, pp116,162.
- 18- لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القيم الثاني، تحقيق ليفي!، بروفسال، دار المكشوف، بيروت، ط2، 1956، صص 7، 57. لسان الدين بن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط - القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، نشر وتوزيع دار الكتاب، الدار البيضاء 1964م، صص 14، 80. ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م، صص 25-346.
- 19- ظاهرة الزطاطة هي تحمل أمن الانتقال من قبيلة إلى أخرى أو من جهة إلى أخرى يعطاء مقابل مالي داخل في الاتفاق بين القبائل المغربية ليسلم إلى القبيلة التي تقوم هي بدورها بتأمين الطريق إلى أن يصل من يتحمل تأمينه ويضمن إبلاغه إلى الجهة التي يقصدها على أن يؤدي في كل قبيلة مقابل تأمينه في الطريق. وقد سادت سلطة القبيلة والتزمت وضمنت سلامة المظطين من تهب اللصوص أو الاعتداء على من يتم التحمل بهم إلى المكان المقصود. وقد درس هذا النظام الأستاذ عبد الأحد السبتي دراسة جيدة في عمله الأكاديمي، بين الزطاط وقاطع الطريق، أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2009.
- 20- تقبل هذه المرحلة وما بعدها لاحقا من تاريخ المغرب بروز تعاطي السلطة لجمع القرابة. Segmentarisme.
- 21- العربي بن عبد السلام ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف في ذكر من سجلماصة من الذرية الأشراف/ مخطوط جامعة أكسفورد، رقم1، ص25. الزكي العلوي، مطالع الزهراء، و214. المقرئ، كثر الأسرار في ذرية النبي المختار، مخطوط خاص. مولاي علي بن المصطفى، فتح القدوس في نسب أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني/ مخطوط خاص. وفي ذلك يقول الفضلي، الدرر البهية، ج1، ص139. "فصل في وفاة مولاي علي الشريف... فكان ذات يوم بزاويته بتغمرت، وحوله جمع من الطلبة والفقراء، وإذ سمعوه يقول أين جبريل وميكائيل فقد وعدني ربي أن لا يقبض روحي حتى يحضران معك، ثم التفت للحاضرين وقال لهم إني راحل عنكم فهذا آخر عهدي بكم، فلم تلبث أن صعدت روحه الكريمة وهو في محله، فرضي الله عنه وأرضاه، ونفعا به، وذلك سنة وأربعين وثمانمائة، وعمره خمس وثمانون سنة، وعليه فتكون ولادته سنة اثنين وستين وسبعمائة، والله أعلم".
- 22- ابن خلدون، العرب، صص 422-423.
- 23- انظر محمد المنوني، ركب الحجيج السجلماصي، طبعة تطوان، 1953.
- 24- نسجل أن مولاي علي الشريف لم يدع دعوة تجعله إماما صوفيا وشيخا داعيا إلى طريقة تفرد به بالإمامة والزعامة، وإنما كان في مجموع حياته وحرركاته رجلا سنيا موحدا لأصول دينه على الأساس الأشعري والأساس المالكي في المذهب الاجتماعي وعلى أساس التصوف السني للجنيد السالك وهي الشهادة التي ورثها الخلف عن السلف سواء في المنبع الذي كانوا مقيمين به يبيع النخيل بالبحاز أو في المغرب وسجلماصة منذ أن مولاي علي الشريف يتحرك من أجل ذلك. وهكذا تكون زاوية مولاي علي الشريف بتافيلالت مركزا لهذه "الحركة الشريفة" تبناها أبناؤه وخلفاؤه من بعده ودافع عليها أتباعه ومن والاه وانضم إليه في وادي إفلي وحوض وادي غريس وزيز.
- 25- انظر كتاب عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني، فلك السعادة في فضل الجهاد والشهادة، مخطوط الخزانة الحسنية والمكتبة الوطنية.

- 26- ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف، صص 24-25، حيث أورد نصا مهما، استصراخ أهل الأندلس بمولاي علي الشريف ضد الإسبان: "وجاءته هدايا من أهل الأندلس وأرسال رافعين إليه الشكاية من الطاغية عدو الله أدفونش ومن أيده من أحلاف العرب، فكتب رضي الله عنه لأهل سوس الأذن والأقصى وقاتل أهل الغرب يأمرهم بالجهاد ويرغبهم في تحصيل ثواب الله عز وجل وواعدهم طنجة..."
- 27- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، 212-213، أحمد بن عبد العزيز العلوي، الأنوار الحسنية، ص. ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف، ص.
- 28- Jacques Meunié, la Maroc saharien، الأنوار الحسنية، ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف، ص24، الناصري، الاستقصا، ج6، ص19.
- 29- اليفرن، نزهة الحادي، عبد العزيز العلوي، الأنوار الحسنية، ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف، ص24، الناصري، الاستقصا، ج6، ص19.
- 30- ابن دفين طيبة، الجوهر الشفاف، ص24.
- 31- نفس المصدر والصفحة.
- 32- Charles-Emmanuel Dufourcq, L'ibérie chrétienne et le Maghreb, XIIe-XVe siècles, Collection : Collected studies 328, Royaume-Uni, 1990, p45.
- 33- راجع ديوان ابن عبد الكريم القيسي.
- 34- الناصري، الاستقصا، ج4، ص295+ج6، ص20.
- 35- لعل بحث الأستاذ حميد الفاتحي سيتناول هذه النقطة بالتفصيل، لذلك سنمر عليها مسرعين.
- 36- تقع شمال النيجر بالصحراء الإفريقية الكبرى، وقد أنشئ مركز بهذا الاسم "ككز" في بداية واحة درعة، وعمرته عناصر بشرية استقدمت من إفريقية السوداء ومن جهات مالي، وحول هذا المركز في المغرب إلى محطة لعبور القوافل المارة على حوض وادي درعة. وقد دخل سكان أككز المستقدمون في خدمة الدولة السعيدية وبعد ذلك الدولة العلوية، وصار هذا المركز يقوم بدور الرقابة ومساعدة من يعبر واحة تيزولين إلى لكتاوة وزاكورة في اتجاه الطريق المؤدية إلى الزاوية الناصرية.
- 37- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، 204.
- 38- ورد ذكر ضرب العملة الذي قام به مولاي علي الشريف في كتب الأنساب ورغم المحاولة التي قمنا بها في البحث عن هذه العملة وشكلها وصورها، فإننا لم نعر عليها في مصادر تاريخ النقود والعملات التي جمعها الباحثون الغربيون في إفريقيا الغربية وحتى المغرب الأقصى، فالعملة التي ذكرت في المؤلفات الجامعة لأشكال العملة وصورها ودراساتها والتي توجد بالخزانة التاريخية للعملة المغربية في بنك المغرب في الرباط، عليه سنحتفظ بما جاء في كتب الأنساب، فهي التي تذكر ضرب العملة لمولاي علي الشريف وظروف الحملة التي قام بها في غرب إفريقيا وفي تسيير ركب الحجيج من سجلماسة إلى الديار المقدسة، كل ذلك مؤشر على صحة ما ذكرته كتب الأنساب المهتمة بترجمة مولاي علي الشريف في القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي.
- 39- هذا النظام العمراني أغنى الباحث حسن تاوشيت في التعريف به بدراسته عن سجلماسة وعمرانها. انظر لحسن تاوشيت، عمران سجلماسة - دراسة تاريخية وأثرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1429هـ / 2008م، في جزأين.
- 40- تسيير المصادر الجغرافية القديمة إلى أن ميناء عجرود على البحر المتوسط كان يعتبر ميناءا لسجلماسة تافيلالت في هذه المرحلة، حيث كانت تصله القوافل من جهات المغرب الشرقي كله، من فكيك وواد الساوره وتوات وسجلماسة. راجع في هذا الصدد ابن فضل الله العمري في المسالك و الممالك وكذلك ماضيه العلامة المنوني في دراسة اقتصاد سجلماسة بالاعتماد على نصوص ابن فضل الله العمري، ويؤيد ذلك ما ذكره الوزان وتبعه غيره من الجغرافيين المقلدين أمثال مارمول.
- 41- Spillmann Georges, Les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Dra, Publications de l'institut des Hautes études Marocaines, XXIX, Rabat
- أوغست كور، دولة بني وطاس، ص32.
- 42- المقصود بهم الاسلاميون الذين كانوا على دين اليهودية فأسلموا.
- 43- وهي مؤامرة لاغتيال مولاي علي الشريف بعد أن حاولوا استرجاع ما كان بيده من أملاك وثروات على أساس أنه سطا عليهم بدون حق، وهو مفتعل وشيء ضد مولاي علي الشريف.
- 44- في تاريخ قضاة سجلماسة لا نعلم له ترجمة فهو شخصية معمرة قد يكشف البحث عن ترجمته ودوره في التاريخ الفقهي والقضائي لتافيلالت، ولعلمه من أفراد بيوتات الفقه والعلم الديني الشرعي في الجهات الفيلالية المشهورة بمراكز العلم مثل جهة الغرفة والمطي وإيراة والسفالات وسواها من القصور والمقاطعات الفيلالية التي أنجبت كثيرا من حفظة القرآن وعلماء الشرع ورجال التصوف كما هو معروف في أولاد ابن عبد الحليم وأولاد الزهرا وكانت هذه الجهات علاقة طيبة ملحوظة مع مولاي علي الشريف وأبنائه، وقد يسر له نوعا من الانتشار والذيوغ لكسب ولاء سكان الجهة الفيلالية، وهذا الجانب لم يعالج في المصادر ولكنه كان معروفا في الوسط العام معرفة ذائعة ومنتشرة.
- 45- مصطلح الاسلامي في تافيلالت وفي الجهات الصحراوية سواء في درعة أو في وادي زيز أو في أقاليم توات والساوره والصحراء المغربية الجنوبية يوجد استعمال مصطلح الاسلامي ويعني العناصر الجديدة التي تدخل في الدين الاسلامي وقد كانت على دين آخر وخاصة اليهود، وقد كونوا جماعة لها حضورها في الحياة الاجتماعية بهذه المناطق وربما امتد المصطلح ليطلق على كل من أسلم من السهود في المغرب عموما، وعرف هذا المصطلح أيضا في مدينة فاس، بحيث أطلق اسمهم على حي في مدينة فاس "البلديون" وهو وصف لهم ومن انتشر في هذا الحي، ثم سموا بأهل البلدة

- وهذا شيء معروف في تاريخ فاس وألف فيه مؤرخو المدينة، ومنهم مجموعة من الأسر التي تنتسب إليهم، وقد حسن إسلامهم وقدموا خدمات جليلة من بينهم الفقيه ميارة شارح المرشد المدين لابن عاشر الذي كان يدرس للعلماء وللمبتدئين بالقرويين.
- 46- ابن دفين طيبة الجوهر الشفاف، ص23.
- 47- يوجد رسم هذه الملكية عند من تعاقب على شرائها ومنهم أسرة آل النازي سعود.
- 48- انظر أحمد بن عبد العزيز العلوي الأنوار الحسينية الزكي العلوي، الشجرة الزكية، ص309. همدون السلمي الفاسي، الدر المنتخب، ج5، ص93.
- 49- أبو القاسم الزباني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، مراجعة الأستاذ مولاي هاشم العلوي القاسمي، طبعة وزارة الثقافة، الرباط، ص21 من النص الحق.
- 50- مستندا هنا ما ذكره الشيخ اليوسي في رسائله، انظر فاطمة القبلي، رسائل اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ج1، ص145.
- 51- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، ص44.
- 52- الفضيلي، الدر البهية، ج1، ص119. كانت أوراد مولاي علي الشريف ذات بعد سني لا تلتزم طريقة صوفية معينة، وكان يعتمد الصلاة المشيشية الشاذلية. وبذلك يكون تصوفه شاذليا سنيا مبينا على ما وافقه عليه علماء القرويين في فاس، وخاصة ما ذكره ابن عباد الرندي الذي بسطه في رسائله الصغرى والكبرى، فإن هذا الاتجاه هو أساس المعرفة الروحية عند مولاي الشريف وأتباعه.
- 53- ابن دفين طيبة، الدرة المكنونة، ص211.
- 54- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، ص144.
- 55- سعيد واحي، سجداسة تافيلالت، ص245.
- 56- الفضيلي، الدر البهية، ج1، ص139.
- 57- عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج1، ص174.
- 58- راجع محمد القبلي، مراجعات.
- 59- راجع: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964. وقد خصصه ابن الخطيب لملوك المايين قبل الاحتلال في المغرب ولم يكمله، وقد توقف فيه عند نهاية الموحدين وتوقف في تاريخ ملوك بني مرين الذين لم يبلغوا الاحتلال بحيث يابعوهم قبل الرشد وواجهوا مشكلة الاعتراف بهم وهم أطفال صغار، وهذه مشكلة الدولة المرينية بعد أبي عنان إلى عبد الحق بن أبي سعيد ابن الخطيب، رقم الحلل، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ، وهي أرجوزة صنفها المؤلف في تاريخ خلفاء المشرق والمغرب والأندلس، وتقدم بها إلى السلطان المريني اعترافا بفضله عليه، وقد اتبع فيها منهجا يقوم على إيراد الأبيات الشعرية المتعلقة بفترة زمنية معينة ثم يتبعها بشرح موجز لتلك الأبيات، وخلالها يورد معلومات هامة وموجزة عنها.
- 60- ابن دفين طيبو الجوهر الشفاف، ص23.
- 61- الفضيلي، الدر البهية، ج، ص.
- 62- كثر الأسرار.
- 63- زهر الأكم.
- 64- مطالع الزهراء.
- 65- الاستقصاء.
- 66- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، صص208-210.
- 67- اهتمت كتب الأنساب بالوسط الفاسي الذي كان يتصرف تصرفا مخادعا وحاول مولاي علي الشريف أن يتجاوزه وأن لا يثق بكل غيمة تصله باعتباره شخصا خطيرا في المجتمع الفاسي على السلطة المرينية وقد ذهب الوشاة الفاسيون كل مذهب لإفساد العلاقة الودية بين السلطان المريني ومولاي علي الشريف، وهذا الوسط الفاسي اعتبرته كتب الأنساب من أوصافه الدائمة وهي الخداع والنميمة وإفساد ذات البين وهي طبيعة تعتبر صفة مستمرة في المجتمعات ذات التواصل المتناقض.
- 68- الزكي العلوي، مطالع الزهراء، صص208-210.
- 69- أزمة السلطان بسكنى فاس بدار توجد بجزاء ابن عامر مدة اثنا عشرة سنة، فكانت كافية لتصفية الجو وكسب ثقة السلطان فيه.
- 70- D.Jacques-Meunié, le maroc saharien des origines à 1670, Klincksieck, paris, 1982, 2 vol. Larbi Mezzine, Le Tafilalt, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII<sup>e</sup> et XVIII<sup>e</sup> siècles, Publication de la FLSH, Rabat, 1987.
- 71- وقد حلل هذا الوضع ابن خلدون في مقدمة كتابه العبر وفصل وقاعه في أجزاء الكتاب وخاصة الرابع والخامس والسادس والسابع، وكان عمله الهام "التعريف" و"السلسل العذب" صورة تحليلية للوضع السائد في المجتمع الذي عم فيه الضعف من كل الجوانب وانتشر فيه التمزق الروحي والنشطي الديني على مستوى الزوايا والطرق الصوفية.
- 72- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص397.
- 73- نفسه، صص426-427.
- 74-Terrasse H., Histoire du Maroc, T2.
- 75- راجع عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط2، 2009 صص426-428.